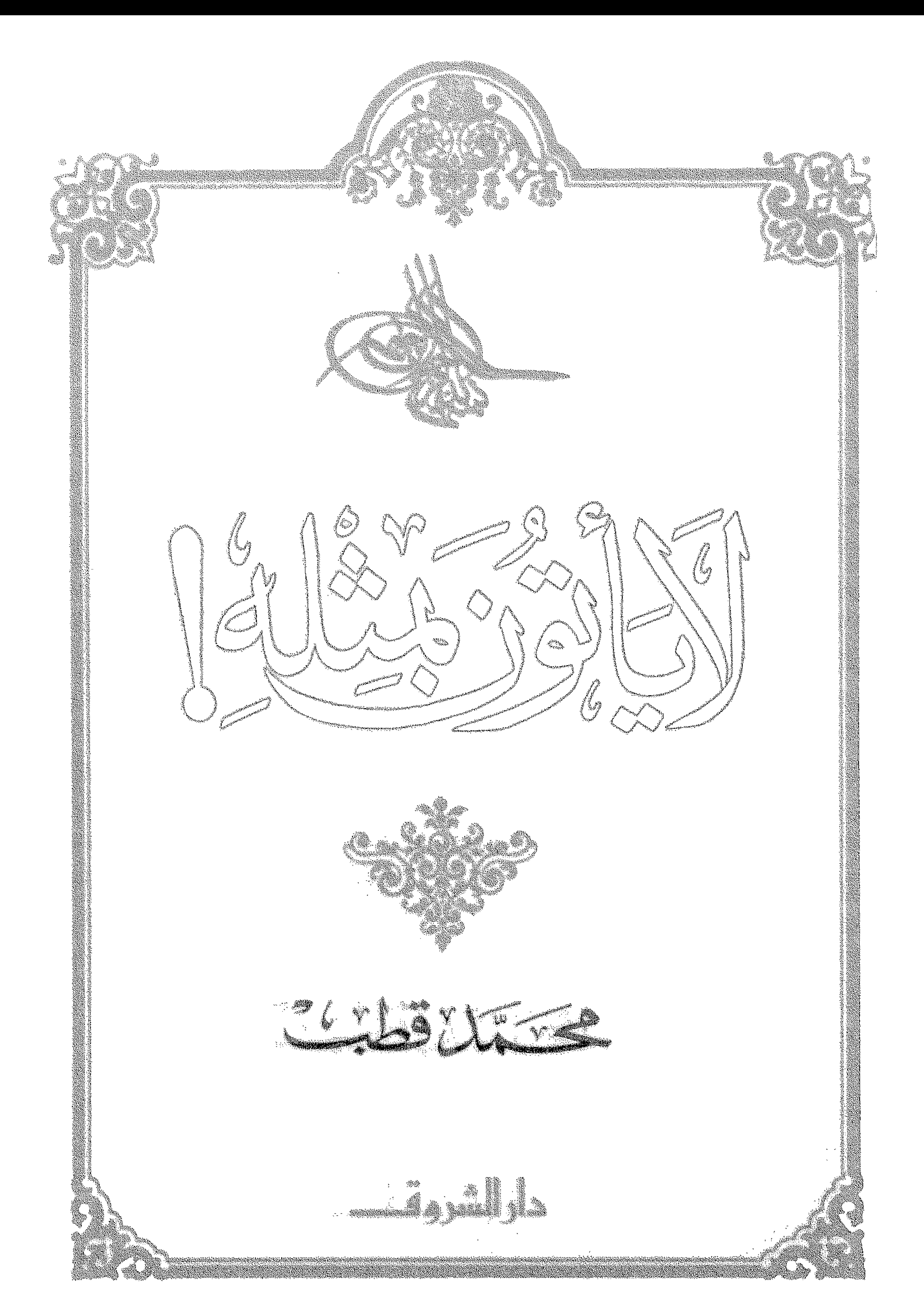

لا يأتون بمثله!
محمد قطب
دار الشروق


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


لا يأتون بمثله!

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب . ٣٣ البانوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩٠
فاكس ٤٠٣٧٥٦٧٠ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email dar@shorouk com

محمد قطب



دار الشروق



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لاَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

صدق الله العظيم



مقدمــة

منذ فترة من الزمن، ظهر على «الإنترنت» كلام مسجوع من تأليف عربي لا يدين بالإسلام، يعيش في أمريكا، يحاول فيه أن يقلد النسق القرآني، من حيث تقسيم الكلام إلى عبارات مسجوعة تنتهي بحرف الميم أو النون مسبوقة بمد يائي أو واوي. وظن المسكين أنه قد أتى بما لم تستطعه الأوائل، كما قال الشاعر:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل[1]

كما ظن أنه بعمله هذا قد أبطل التحدي الذي تحدى الله به الإنس والجن حين قال سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2]. وكأنه يقول: ها أنذا قد أتيت بمثله! وإذًا فقد أبطلت التحدي، وأبطلت دعوى الإعجاز القرآني الذي قامت عليه رسالة محمد (ﷺ). وإذًا فالإسلام ليس من عند الله، إنما هو صناعة بشرية قام بها محمد (ﷺ)!

ولعل المسكين لم يعلم أن مسيلمة الكذاب قد قام بمثل هذا العمل من قبل، وأتى بسجعات مثل سجعاته قال إنها مثل القرآن. ومر الزمن وبطلت سجعات مسيلمة، وبقي القرآن يتحدى الإنس والجن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن هذه الأضحوكة الساذجة التي قام بها مسيلمة المتأمرك - وإن لم يدع بها النبوة كسلفه الجاهلي - حفزتني إلى أن أعاود الكتابة في موضوع كنت قد أشرت إليه في كتاب سابق بعنوان «دراسات قرآنية»، وهو موضوع الإعجاز الشامل للقرآن

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري.

(٢) سورة الإسراء ٨٨.

الذي لاينحصر في الإعجاز البياني، الذي توجه إليه الاهتمام الأكبر في كتابات الأقدمين، لأسباب لا يصعب إدراكها.

لقد كان العرب في جاهليتهم قوما أولى فصاحة نادرة، وكانوا يعتزون بفصاحتهم إلى الحد الذي أطلقوا على غير الناطقين بلغتهم لفظة «العجم» ووصفوهم بـ «العجمة»، وفيها إشارة واضحة إلى أنهم يَعُدُّونهم دونهم لا لسبب إلا لأنهم لا يستطيعون الكلام باللغة الفصيحة ـ لغتهم هم ـ التى يتميزون بها!

وإذ كان ديدن الرسالات السماوية أنها تتحدى المنكرين بمعجزة تفوق قدرتهم البشرية، ليستيقنوا أنها من عند الله، ولو جحدوها ظاهرا، إمعانا في الكفر والعناد كما قال سبحانه وتعالى عن موقف آل فرعون من معجزات موسى عليه السلام: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1].

إذ كان هذا ديدن الرسالات، فقد تحدى الله سبحانه وتعالى كل قوم فيما برعوا فيه وعَدُّوه موضع فخرهم. فتحدى قوم فرعون بآيات تفوق السحر الذي كانوا بارعين فيه، وكانوا يستخدمونه لفتنة الناس عن ربهم، وتأليه الفرعون بدلا من الله. وتحدى قوم عيسى عليه السلام بآيات تفوق براعاتهم في الطب الذي كانوا يمارسونه ويعتزون بإتقانه؛ فأعطاه القدرة على نفخ الحياة في الطين، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ليستيقنوا أنه من عند الله:

﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

فلما بعث الله الرسول الخاتم ﷺ في العرب، كان من المناسب أن تكون الآية التي يتحدى بها المنكرين فصاحةً من نوع ودرجة لا يقدرون على الإتيان بمثلها، لتستيقنها أنفسهم ولو جحدوا بها ظاهراً كقوم فرعون، فكانت معجزته الكبرى ﷺ هي هذا القرآن، الذي تحداهم أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر

---

(١) سورة النمل. ١٤.
(٢) سورة آل عمران. ٤٩.

سور من مثله فلم يستطيعوا ، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا ، بصرف النظر عن المحاولة العابثة التي قام بها مسيلمة الكذاب ، والمحاولة الأخرى التي قامت بها المتنبئة سجاح ، فلم تستطع هذه ولا تلك أن تقنع العرب بأن القرآن يمكن أن يأتي أحد بمثله . (هذا بالإضافة إلى أن الله قد أراد أن تكون معجزة الرسول ﷺ باقية على الزمن ، لا تذهب بذهاب القوم الذين شاهدوها ، لأن الله أراد أن يكون محمد ﷺ خاتم النبيين ، وأن تكون رسالته هي الرسالة الخاتمة ، الباقية إلى آخر الزمان) .

إذا أدركنا ذلك ، أدركنا سر اهتمام القدامى من الكتّاب العرب بالإعجاز البياني في القرآن ، حيث كان هو موضع التحدي ، وحيث كان عجز العرب ـ المعتزين بفصاحتهم ـ عن الإتيان بمثله ، دليلا يقينيا على أن هذا القرآن هو كلام الله ، وليس من كلام البشر ، وأنه ـ بهذه الصفة ـ هو دليل صدق الرسول ﷺ في رسالته .

نعم . . ولكن القرآن لم يكن معجزا في بنائه اللفظي وحده! وإن كان إعجازه اللفظي كافيا ـ وحده ـ للدلالة على أنه من عند الله ، وكافيا ـ وحده ـ لإقامة التحدي أمام الإنس والجن إلى قيام الساعة !

القرآن معجز في جميع مجالاته ، وعلى جميع أصعدته . .

وإذا كان القدامى ـ لأسباب مفهومة ـ قد وجهوا أكبر اهتمامهم للإعجاز البياني ، الذي تحدى القرآن به الجاهلية العربية وآلهتها المزيفة ، فقد آن لنا أن نتدبر جوانب الإعجاز الأخرى في هذا الكتاب المعجز ، التي لا تقل إعجازا عن الإعجاز البياني ، والتي نحن في حاجة إلى تدبرها ، وبيانها ، وإبرازها ، لتحدى الجاهلية المعاصرة ، التي تتخذ صورة «العلمانية» ، وترفع شعارات «العلم» و«العقلانية» و«التنوير» ؛ لتفتن الناس عن ربهم ودينهم ، وتؤله «الإنسان» بدلا من الله ، وتسعى ـ بحماقة ـ إلى تدمير الإنسان ، بإبعاده عن مصدر النور الحقيقي :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] .

---

(١) سورة النور . ٣٥

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[1] .

ولن يفي كتاب واحد ـ مهما تضخمت صفحاته ـ بالحديث عن كل مجالات الإعجاز في القرآن، فهي في حاجة إلى أن يتفرغ لها كتّاب وباحثون، بحيث تتكون من مجموع بحوثهم مكتبة كاملة عن إعجاز القرآن، سواء الإعجاز البياني الذي لا تنفد عجائبه، أو الإعجاز الدعوي، بوصفه كتاب دعوة قد أبرز عقيدة التوحيد الصافية كما لم يبرزها كتاب قط، ودخل بها إلى قلوب البشر من جميع منافذها وأقطارها كما لم يفعل كتاب قط، أو الإعجاز التشريعي الذي تضمن شريعة متكاملة وافية بحياة البشر ومتطلبات وجودهم لا في زمان نزولها فحسب، بل مهما امتد بهم الزمن وتعددت مجالات الوجود، أو الإعجاز التربوي الذي أخرج خير أمة أخرجت للناس، أو الإعجاز العلمي الذي تتكشف آياته كلما زاد البشر علمًا بما حولهم من الكون . .

ولكن ضخامة الجهد المطلوب، وسعة الميادين المفتوحة للدراسة والبحث، لا تمنعني أن أدلي بجهدي المتواضع الذي لا أبغي به أكثر من أن يكون مجرد إشارات، لعلها تحفز الباحثين إلى أن يبحثوا، والمفكرين إلى أن يتدبروا كما أمرهم الله : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[2] .

أرجو الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن يتقبل مني جهدي على ضآلته، وأن يعينني على ذكره وشكره وحسن عبادته ؛ فما أحوجني إلى عونه، وما أحوجني إلى رضاه، وما أحوجني إلى عفوه عن الزلات والهفوات والغفلات . . اللهم عفوك ورضاك يا أكرم الأكرمين .

محمد قطب

---

(١) سورة الصف : ٨، ٩.
(٢) سورة النساء . ٨٢.

من الإعجاز البياني

كتب الكثير عن الإعجاز البياني للقرآن، ولست هنا أضيف شيئًا إلى ما قيل، وإنما هي وقفات سريعة تمثل بعض انطباعاتي في هذا المجال.

أشرت من قبل في كتاب «دراسات قرآنية» إلى ما يطلق عليه ظاهرة التكرار في القرآن. وقلت إن التكرار نادر جدا في القرآن الكريم لا يتجاوز آيات معدودة جاءت بنصها في أكثر من سورة. ولكن الظاهرة الحقيقية ليست هي التكرار إنما هي التشابه الذي يؤدي إلى التنوع، وقلت إنها كثمار الجنة تبدو لأول وهلة أنها هي هي، ولكنها عند المذاق يتبين الفرق بينها وبين ما كان من قبل: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[1].

وهذا التشابه الذي يؤدي إلى التنويع هو ذاته لون من الإعجاز. فالموضوع الواحد يعرض مرارا، ولكنه يعرض في كل مرة مختلفا عما سبقه نوعا من الاختلاف، فيكون جديدا في كل مرة، ويكون ـ مع التلاوة المستمرة للقرآن ـ متجددا على الدوام.

وقد يكون الاختلاف في حرف واحد، ولكنه يغير الصورة!

خذ هذا النموذج:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[2].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة ٢٥. (٢) سورة البقرة ٤٩. (٣) سورة إبراهيم ٦.

هناك نوعان من الاختلاف بين الآيتين ـ وإن كان موضوعهما واحدا ـ فا
الأولى خطاب من الله تبارك وتعالى إلى بني إسرائيل يذكرهم بنعمه عليهم، و
عليهم بأنه نجاهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب، والثانية خطاب
موسى عليه السلام إلى قومه يذكرهم بنعم الله عليهم، ويذكرهم بالذات بـ
النعمة الكبرى، وهي تنجيتهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذا
بالإضافة إلى التغيير في صيغة الفعل: نجيناكم وأنجاكم، أحدهما متعدّ بالتضع
والآخر متعدّ بالهمزة، وأحدهما بضمير المتكلم والثاني بضمير الغائب.

ولكن انظر إلى الجزء الخاص بالعذاب الذي كان يوقعه آل فرعون ببني إسرائ
إن فيه اختلافا بين الآيتين يحدث تغييرا في الصورة:

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾.

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾.

إن الفارق بين العبارتين حرف واحد، هو الواو التي جاءت في الآية الثانية
كلمة «يذبّحون»، ولكن انظر كم أحدث الحرف الواحد من الاختلاف بين الصورتي

في الصورة الأولى ينحصر العذاب في قتل الأولاد واستحياء النساء، و
الثانية يصبح هذا الأمر واحدا فقط من ألوان العذاب التي تصب على بني إسرائي
وإن كان السياق يوحي بأنه من أبرزها، وأشدها وأخبثها. إذ أجمل «سوء العذا
وفصل قتل الأولاد واستحياء النساء».

ذلك مجرد نموذج ينفي خاطر «التكرار» الذي يتوهمه قارئ القرآن لأول وهلة
ويبرز بدلا منه ظاهرة «التشابه» التي تؤدي إلى التنويع، والتي تشبه ثمار ا
الموصوفة في القرآن الكريم.

فإذا تدبرنا مجالين بالذت يوهمان بالتكرار للوهلة الأولى، بينما حقيقتهما
التشابه وليس التكرار، فذانك هما قصص الأنبياء مع أقوامهم، وصور النع
والعذاب في اليوم الآخر، وهما من أكثر الموضوعات ورودا في القرآن الكر
ولكن بشكل مختلف في كل مرة، وذلك ـ في ذاته ـ كما أشرنا من قبل لون
الإعجاز، لايرد بهذه الصورة في كلام البشر المحدودي القدرة في مجال التعبير.

خذ هذا النموذج من قصة نوح في ثلاث سور من سور القرآن .

من سورة هود :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١) .

---

(١) سورة هود : ٢٥ ـ ٤٤

ومن سورة الأعراف:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (١).

ومن سورة الشعراء:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

إنها قصة واحدة.. قصة نوح مع قومه، وجدالهم معه، وردوده عليهم، وتكذيبهم له، وإغراقهم في النهاية ونجاة المؤمنين.

ولكن هل هي واحدة في السرد القرآني، أم إنها صور متعددة وإن تشابهت في عمومياتها، وفي بدئها وفي نهايتها؟

---

(١) سورة الأعراف: ٥٩ـ ٦٤.

(٢) سورة الشعراء: ١٠٥ـ ١٢٢.

إن اختلاف الصور في طرق السرد المختلفة هو في ذاته جمال، لأنه يعطي في كل مرة جوا مختلفًا للقصة في نفس القارئ والسامع، فكأنها قصة جديدة، مع أن الأشخاص هم هم، والوقائع هي هي في النهاية.

ولكن أروع من ذلك أن تدرك مع الاختلاف سر الاختلاف!

إن القصص في القرآن لا يرد لمجرد القصص، وإن كان مشتملا من الناحية الفنية الجمالية على عناصر الجمال الفني التي تجعل له مدخلا لطيفا إلى النفس، فيكون أبلغ تأثيرا فيها، مما لو كان مجرد فكرة أو قضية ذهنية تخاطب العقل وحده ولا تخاطب الوجدان.

ولكن الروعة في هذا القصص أنه ـ مع جماله الفني ـ يؤدي هدفا دعويا مما يشتمل عليه كتاب الدعوة الأعظم، في تناسق كامل بين الهدف الدعوي و الجمال الفني. . وإذ كانت الأهداف الدعوية كثيرة ومتعددة ومختلفة، يجيء القصص القرآني في صورة مختلفة في كل مرة، متناسقة مع الهدف المقصود من إيراد القصة، مع توافر الجمال الفني في كل مرة.

ولنراجع قصة نوح في السور الثلاث التي أثبتناها منذ قليل، لنرى تناسقها في كل مرة مع الهدف من إيراد القصة . .

الهدف من إيراد القصة في سورة هود ـ كما هو مذكور في سياق السورة ـ ثلاثة أمور:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[١].

(١) سورة هود ١٠٠ ـ ١٠٣.

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) .

فهي إنذار للناس لكي يحذروا عذاب الآخرة ويتقوه . . وهي تثبيت لقلب الرسول ﷺ ، وهي موعظة وذكرى للمؤمنين .

وكان من المناسب لهذه الأهداف الثلاثة تطويل العرض ، والإكثار من ذكر التفاصيل فيما وقع بين كل رسول وقومه . وكان ذلك مناسبا بصفة خاصة للهدف المتعلق بتثبيت قلب الرسول ﷺ وهو يلقى العنت من قومه : من تكذيبهم وجدلهم واللدد في خصومتهم . . فها هو ذا رسول سابق من رسل الله قد لقي مثل ذلك العنت ، وصبر عليه ، ثم نجاه الله وقضى على الذين كذبوه . .

أما الهدف في سورة الأعراف ـ كما جاء في سياق السورة ـ فهو هذا البيان :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(٢) .

فالتركيز هنا هو على الأخذ المباغت ، وليس على ما جرى من أحداث بين الرسول وقومه ، فلا يركز عليها في السياق .

وأما في سورة الشعراء فهدف إيراد القصة ـ كما هو مذكور في السورة ـ أن الكفار يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم بآية تجعلهم يصدقون أنه رسول من عند الله . فجاء التركيز في القصة على الآية ، وهي إهلاك المكذبين وتنجية المؤمنين ، وليس على تفاصيل الأحداث كما كان الحال في سورة هود .

وهكذا يتم للقصة جمالها الفني مع وفائها ـ في كل مرة ـ بالهدف من إيراد القصة ، وتتنوع الصور في كل مرة بما يناسب سياق العرض . .

وذلك من الإعجاز . .

* * *

(١) سورة هود : ١٢٠ .

(٢) سورة الأعراف : ٩٤ ، ٩٥ .

والشأن كذلك في مشاهد القيامة، وهي كثيرة متنوعة، تعرض أحيانا في اختصار شديد، في كلمات معدودات، وأحيانا بالتفصيل في آيات متواليات، وفي كل مرة تعطي جوا خاصا، يتناسب - من جهة - مع قصر السورة أو طولها، ومن جهة أخرى مع السياق المعروض في السورة، ولكل سورة من سور القرآن جوها الخاص وسياقها الخاص، وإن اشتركت جميعا في هدف واحد كبير مشترك، هو هداية الناس إلى ربهم، وتعريفهم به، وبما يجب عليهم تجاهه - سبحانه - من خالص العبادة وخالص الطاعة.

خذ مثالا من أمثلة الإيجاز البليغ، سورة القارعة:

﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ﴾(١).

وخذ صورة أخرى أكثر تفصيلا، ولكن في غير طول، في سورة الغاشية:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾(٢).

وخذ وصفا أكثر تفصيلا للعذاب، في سورة الحج:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(٣).

---

(١) سورة القارعة: ١ - ١١.
(٢) سورة الغاشية: ١ - ١٦.
(٣) سورة الحج: ١٩ - ٢٢.

أو هذا المشهد من سورة الواقعة :

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[1] .

ثم خذ هذا المشهد المفصل للنعيم، من سورة الإنسان :

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[2] .

ماذا تجد في نفسك حين تتتبع هذه المشاهد في القرآن الكريم؟

إنك أولاً في عرض متنوع على الدوام، سواء من حيث الإيجاز والتطويل، أو من حيث مفردات الوصف للنعيم والعذاب، التي تختلف في كل معرض عنها في المعرض الآخر، والتي تشكل في كل مرة صورة مختلفة عن الصور الأخرى، حتى وإن اتحدت في عمومياتها.

وأنت ثانيًا في عرض حيّ متدفق الحيوية، لا تملك ألا تنفعل به نفسك، ويتأثر به وجدانك. بل لا تملك إلا أن تعيش فيه كأنه حاضر أمامك اللحظة، يحيط بك من

(١) سورة الواقعة . ٤١ ـ ٥٦

(٢) سورة الإنسان . ١١ ـ ٢٢ .

كل جانب، ويأخذ عليك أقطار نفسك. بل يصل التأثر به أن يعيش الإنسان فيه كأنه هو الحاضر، وكأن الحياة الدنيا ـ التي هي الحاضر في الحقيقة ـ كانت واقعا قديما، حدث ذات يوم ثم مضى وانقضى، وليست هي التي يعيشها الإنسان في هذه اللحظة، فيظل خاطر الآخرة حيا في النفس لا يفارقها، بما تشتمل عليه من صور النعيم والعذاب، الأولى تدفع الشوق إلى الجنة، والثانية تحذّر من الوقوع في العذاب. وذلك من الإعجاز . .

* * *

وثمة مجال ثالث يبدو فيه التنويع ـ لا التكرار ـ أوضح ما يكون، ذلك مجال الآيات الدالة على قدرة الله . .

إن القرآن ـ كما قلنا ـ كتاب هداية، مهمته الأولى هداية الناس إلى ربهم، وإلى الصراط المستقيم:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وأوسع الأبواب التي ترد في القرآن لتعريف الناس بربهم هو الآيات الدالة على قدرة الله، والتي تؤدي بالقلب البشري ـ حين يتدبرها على حقيقتها ـ أن ينبذ الآلهة الزائفة كلها، ويتعلق بالإله الحق، الذي لا إله غيره، ويعبده وحده بلا شريك.

وفي مكان آخر من الكتاب سنتكلم عن هذه النقطة في مجال الإعجاز الدعوي، والإعجاز التربوي. إنما نريد هنا أن نتحدث عنها من ناحية دخولها في ظاهرة التنويع، التي يخيّل للإنسان للوهلة الأولى أنها تكرار، ولكنها ليست تكراراً في الحقيقة، إنما هي عرض متنوع على الدوام.

الآيات في مجملها واحدة: خلق السموات والأرض، وخلق الناس، وتدبير الكون، والهيمنة التامة على كل ما في الوجود ومن في الوجود، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، والحاكمية المطلقة على كل شيء في الكون المادى أو في حياة البشر.

---

(١) سورة المائدة . ١٥ ، ١٦ .

ولكن هذه الأمور لا تأتي في صورة واحدة. . بل في مئات الصور في القرآن من أوله إلى آخره.

وتختلف الصور. . مرة من حيث الطول والقصر، ومرة من حيث المفردات المذكورة في كل منها، ومرة من حيث الحجم الذي تأخذه كل مفردة من المفردات في سياق السورة.

فخلق السموات والأرض ربما كان أكثر الآيات ورودا في معرض إثبات قدرة الله التي لا تحدها حدود. ولكن هذه القضية الواحدة ترد في صور شتى تجعلها جديدة وقائمة بذاتها في كل مرة:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة ٢٩ — (٢) سورة البقرة: ١٦٤

(٣) سورة الأعراف: ٥٤. — (٤) سورة الرعد ٢ـ٤.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١].

فكيف ترى في هذه الآيات؟!

أهي ذات المشاهد المألوفة التي يتبلد عليها الحس لأنها مكرورة أمامه؟ أم إنها أمر آخر جديد يهز الوجدان ويحرك المشاعر؟!

وما الجديد فيها؟!

إن الجديد فيها شيئان يبرزهما السياق. الأول أن السياق يعرضها لا على أنها «مرئيات» أمام الإنسان يطلب منه أن يشاهدها، أو حتى أن يلتفت إليها التفاتا خاصا.. إنما يصلها مباشرة بالقدرة القادرة التي أوجدتها، والتي تحركها وتدبر أمرها.. تصلها بالله؛ فيشاهدها الإنسان ـ مع السياق القرآني ـ في ثوب جديد غير ذلك الذي تبلد عليه الحس. فتنتفض حية في الوجدان، لأن الوجدان يتابع فيها يد الصانع القادر الجليل، في كل شيء بمفرده، وفي المجموع الذي تكوّنه المفردات.. فينبض القلب بالتأثر العميق[٢].

أما الشيء الآخر فهو التنوع المستمر في العرض.. إن له خاصية ذات تأثير، هي إحياء المشهد المعروض كأنه في كل مرة جديد.

وذلك من الإعجاز..

* * *

---

(١) سورة النحل: ١٠ ـ ١٧.

(٢) سنتعرض لهذه النقطة مرة أخرى في الحديث عن الإعجاز الدعوى

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن التنويع ذاته هو آية من آيات الله التي يشار إليها نصا في معرض الحديث عن آيات الله في الخلق :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾(١).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(٢).

ويلفت النظر في هذا النص الأخير أن التعبيرعن التنويع جاء من خلال التنويع في بعض ألفاظ العبارة ذاتها، ما بين التذكير والتأنيث، والرفع والنصب :

﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾

﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾

وخذ كذلك هذا النص من سورة الأنعام :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٣).

---

(١) سورة الروم : ٢٢.   (٢) سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨.

(٣) سورة الأنعام : ٩٥ـ٩٩

إن التنويع في عبارات الآيات واضح بصورة تلفت النظر . .

ففي الآية الأولى لم يقل: يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي كما هو المعتاد في الآيات الأخرى، ولكن قال: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهذا تنويع. . .

وفي الآية الثانية لم يقل: فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا كما هو المعتاد في عطف الاسم على الاسم، ولكن قال: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ وهذا تنويع. .

وفي الآية الرابعة لم يقل: هو الذي أنشاكم من نفس واحدة فجعل لها مستقراً ومستودعا كما يتوقع أن يكون السياق العادي فيجري العطف بين فعل وفعل، إنما حذف الفعل الثاني وجيء بمعموله مرفوعًا كأنه نائب فاعل (فَجُعِلَ لها مستقر ومستودع) وهذا تنويع. .

وفي الآية الخامسة تكرر الفعل ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ في الزمن الماضي وجاء بعده المضارع ﴿نُخْرِجُ﴾ وفي هذا تنويع. . ثم تجاور في العبارة اسمان مرفوعان بالضمة ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، واسمان أحدهما منصوب بالكسرة والثاني مجرور بالكسرة ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ واسمان منصوبان بالفتحة ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾. وأخيرا جاءت كلمة في صيغتين مختلفتين ﴿مُشْتَبِهًا﴾ و ﴿مُتَشَابِهٍ﴾ وذلك كله تنويع. .

وذلك من الإعجاز. .

* * *

ثم يلفت النظر نوع آخر من التنويع في عرض آيات القدرة الربانية. .

ففضلا عن كون التنويع يذكر ـ في ذاته ـ على أنه من آيات الله الدالة على القدرة التي لا تحدها حدود، والتي لا تخلق فحسب، بل تخلق أنواعا مختلفة من كل شيء، وفضلا عن التنويع الذي يرد في العبارات ليلفت النظر إلى ظاهرة التنويع في الخلق، فإن إيراد آيات القدرة يأخذ في كل مرة «جو» السورة الذي ترد فيه.

فالآيات في مجملها واحدة كما أشرنا من قبل: خلق السموات والأرض، وخلق الناس، وتدبير الكون، والهيمنة التامة على كل ما في الوجود وكل من في الوجود، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، والحاكمية المطلقة على كل شيء في الكون المادي أو في حياة البشر. . ولكنها حين تعرض في سورة يغلب عليها جو

الرضا الرباني على المؤمنين، أو التذكير اللطيف الذي يدعو الناس إلى الإيمان، تأخذ صورة مختلفة عنها هي ذاتها حين تعرض في سورة يغلب عليها جو الغضب الرباني على الكفار أو جو النذير..

ولنعد إلى المثال الذي ذكرناه آنفا من سورة الأنعام، الذي جاء في آخره قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بمعنى أنه جاء في معرض التذكير بآيات الله لدعوة الناس إلى الإيمان. ولنضع إلى جانبه هذه الآيات من سورة يس، التي تشمل «الموجودات» نفسها أو الآيات نفسها، ولكن في جو مشحون بالغضب على الكافرين المعاندين، ولننظر كيف تختلف طريقة العرض:

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

فالعيون **تفجّر**، والليل **يسلخ** منه النهار، **والظلام** يسود فجأة، وآخر صورة للقمر هي كونه **كالعرجون القديم**، والشمس **لا تدرك** القمر **ولا ينبغي لها**، والليل لا **يسبق** النهار **ولا ينبغي له**. والفلك **مشحون**. وهم منذرون بإمكان **إغراقهم** في وضع لا ينجدهم فيه أحد ولا يسعى لإنقاذهم أحد!

وما أبعد هذه الصورة عن الصورة الواردة في سورة الأنعام، وإن كانت كلتاهما تتحدث عن الشمس والقمر والزرع والثمار!

وذلك من الإعجاز..

* * *

---

(١) سورة يس. ٣٣ـ٤٤.

كنا حتى الآن نتحدث عن ظاهرة واحدة من ظواهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، هي ظاهرة التنويع، وذلك في مجالات رئيسة ثلاثة: قصص الأنبياء مع أقوامهم، ومشاهد القيامة، وآيات الله في الكون. ولكن الظاهرة لا تنحصر ـ كما ألمحنا في أول الكلام ـ في هذه المجالات الثلاثة، فهي ظاهرة عامة في القرآن كله، وفي كل موضوعاته، ضربنا لها مثلا في قوله تعالى في (سورة البقرة: ٢٥) ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وقوله تعالى في (سورة إبراهيم: ٦) ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، والأمثلة كثيرة في القرآن الكريم تلفت انتباه كل قارئ يقرأ بوعي، سواء أدرك الحكمة فيها أم لم يدركها، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[2]، فالتركيز في الأولى على المجيء من أقصى المدينة، بما يوحي بأهمية الأمر الذي حفز الرجل على قطع تلك المسافة الكبيرة، والتركيز في الثانية على الرجل ذاته، بما يوحي باهتمامه الخاص بالأمر، وأنه حريص على سلامة موسى عليه السلام (والراجح أنه هو الرجل المؤمن من آل فرعون الذي ناصر موسى فيما بعد في مواجهة فرعون). وقوله تعالى عن اليهود ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[3] وقوله عنهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[4]. ففي الأولى يشير إلى تحريفهم لكلام الله، وما في ذلك من لؤم والتواء، وفي الثانية يشير إلى تجرؤهم على الله سبحانه وتعالى بأن يقرر الأمر فيقرروا غيره من بعد تقرير الله له، وما في ذلك من توقح وتمرد على رب العالمين. وفي مثل تلك المواضع يكون للتنويع دلالة خاصة تضاف إلى مجرد التنويع، الذي هو في ذاته هدف مقصود.

وذلك من الإعجاز..

* * *

ولكن ظاهرة التنويع ـ على تعدد مجالاتها في القرآن الكريم ـ ليست وحدها التي تحمل الإعجاز البياني فيه. فللإعجاز البياني في القرآن تجليات كثيرة في مجالات

---

(١) سورة يس ٢٠.
(٢) سورة القصص: ٢٠.
(٣) سورة المائدة ١٣.
(٤) سورة المائدة: ٤١.

كثيرة، ليس من الضروري أن تكون ظاهرة عامة في كل مرة، فقد تكون في آية، وقد تكون في حرف من آية، كما سنضرب الأمثلة من أماكن متفرقة من كتاب الله الكريم، لمجرد التوضيح لا على سبيل الحصر.. فالأمر يفوق الحصر!

في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في سورة البقرة، وردت هذه الآيات:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

لاحظ نغمة المد في هذه الكلمات بما يناسب جو الدعاء ﴿مِنَّا إِنَّكَ﴾ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً﴾ ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ..﴾.

ثم لاحظ تغير النغمة بما يوحي بانتهاء الدعاء: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ..﴾.

إن حركات المد في العبارات الأولى تشعرك بالاستغراق في الدعاء، والرغبة في التعبير عن مشاعر عميقة تملأ قلبيهما وهما يتوجهان هذا التوجه الخاشع بين يدي الله وهما يقيمان قواعد البيت، بينما الياء في كلمة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ توحي بأن الدعاء قد وصل إلى غايته، وأنه يوشك أن ينتهي، بعد أن بثا مشاعرهما لله العليّ العظيم. وحين تصور الكلمات ـ وهي مجرد كلمات ـ مشهداً كاملا جياشا على هذا النحو، وتعطي صورة الأكف المرفوعة بالضراعة، ثم حركة الأكف وقد أوشكت أن تفرغ من الدعاء هابطة إلى أسفل.. يكون هذا من الإعجاز.

* * *

في سورة آل عمران ترد هذه الآيات:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة. ١٢٧ ـ ١٢٩

(٢) سورة آل عمران ٣٧، ٣٨

المشهد هو مريم منقطعةً للعبادة في المحراب، وزكريا لا يفتأ يدخل عليها يتفقد أحوالها، فهو كفيلها المسئول عن تربيتها ورعايتها، فيجد عندها رزقا متجددا فيسألها: من أين لها هذا وهي لا تبارح المكان ولا تسعى على الرزق، فتجيبه في براءة وبساطة: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. فتجيش نفس زكريا بمشاعر هائلة، وهو يرى الفيض الإلهي يفيض على مريم، وهي الطفلة التي لا حول لها ولا طول. فيشتاق .. يشتاق إلى الذرية، ولم يكن قد رزق بالولد بعد، ويشتاق إلى أن يفيض الله عليه من نعمائه كما أفاض على هذه الطفلة الصغيرة التي كلفه الله برعايتها .. ﴿هُنَالِكَ﴾ دعا زكريا ربه ..

﴿هُنَالِكَ﴾ .. ما دلالة اللام في هنالك؟!

إن اللغويين والبلاغيين يقولون إنها تعبر عن البعد. فالشيء يشار له بكلمة «هنا» إذا كان حاضرا قريبا تدركه العين أو اليد لقربه. ويشار إليه بكلمة «هناك» إذا كان بعيداً عن متناول اليد .. ثم إذا اشتد بعده يشار إليه بكلمة «هنالك» بزيادة اللام لتعطي مزيدا من البعد ..

فأين البعد هنا؟

هذا هو المحراب، وهذه هي مريم، كلاهما حاضر قريب. وهذا هو زكريا معها في نفس المكان ..

لا بعد في المكان، ولا بعد في الزمان

إنما البعد في أغوار النفس!

«هنالك» في أعماق نفس زكريا تحرك الشوق .. الشوق إلى الذرية. والشوق إلى الفيض الإلهي الذي يفيض بالخير، وبالرحمة وبالعطاء، وبالرضوان ..

هل تحس مدى العمق في المشهد .. العمق الواغل في أعماق النفس؟

إنه الإعجاز ..

* * *

يقول تعالى في سورة فاطر:

﴿ . . وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[1].

فماذا يوحي إليك النص؟ وما الصورة التي تتبادر إلى ذهنك؟

إن المقصود بالنص هو النفس الإنسانية المثقلة بالذنوب، يقف صاحبها يوم القيامة مثقلا بذنوبه، كما ورد في نصوص أخرى:

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2]

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[3].

﴿ . . وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾[4].

﴿ . وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[5].

نعم . . ولكن!

إن حذف الموصوف (نفس) مع إبقاء الصفة (مثقلة) وتأنيثها، وإطلاقها بغير موصوف معين، يورد على الخاطر صورة المرأة الحامل، المثقلة بحملها . . كم تعاني منه؟!

وإن تدع البشر جمعيا إلى حملها ـ فضلا عن أولى القربى ـ فهل يستطيع أحد أن يحمل عنها حملها أو يخفف عنها شيئا مما تعانيه من ذلك الحمل؟!

إنه حملها الخاص الذي لا يملك أحد على وجه الأرض كلها أن يحمل «شيئا» منه، وهي معاناتها الخاصة التي لا يستطيع أحد أن يعاونها فيها، فضلا عن أن يخففها عنها . .

---

(١) سورة فاطر ١٨.
(٢) سورة النحل ٢٥.
(٣) سورة العنكبوت . ١٣.
(٤) سورة طه ٩٩ـ١٠١.
(٥) سورة الأنعام : ٣١.

كم تبلغ هذه الصورة في تعميق المعنى المقصود، الذي يرد أحيانا بصيغ أخرى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(١)، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٢) . .

وكم تؤثر هذه الصورة في نفس من ﴿كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٣)

إنه الإعجاز . .

* * *

يقول تعالى في سورة الرعد:

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ . (٤)

الأمثال لها وقع خاص في النفوس، لأنها ترسم صورة موازية للمعنى المقصود. . تحوي غالبًا أمورًا من مألوفات الحياة، يستطيع الناس بسهولة أن يتعرفوا عليها ويتمثلوها في أذهانهم. ثم يقطع الخيال رحلة ممتعة ينتقل فيها من هذه الأمور المألوفة إلى المعنى «الموازي»، فيتجسم المعنى وينبض بالحيوية حين يدرك الإنسان وجه الشبه بينه وبين الصورة الواردة في المثل، ويتضاعف حجمه في الحس لأن الإنسان يراه مرتين: مرة في الصورة المجردة، ومرة في المثل المضروب.

وفي القرآن ترد أمثال كثيرة، تجسم المعاني التي يراد تجسيمها، وتضاعف وقعها في النفوس. وتجيء الإشارة إلى ذكر الأمثال في القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ . (٥)

ولكن هذا المثل المضروب في سورة الرعد له خصوصية حتى بين الأمثال:

---

(١) سورة الإسراء: ١٥

(٢) سورة المدثر: ٣٨

(٣) سورة ق: ٣٧.

(٤) سورة الرعد: ١٦، ١٧.

(٥) سورة الروم: ٥٨.

إنه يبدأ بكلام لا تحسبه في بادئ الأمر مثلا يضرب، لأنه حقيقة واقعة من حقائق «الطبيعة» التي خلقها الله، تجيء في معرض ذكر القدرة الإلهية : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً. . .﴾.

ولكن هذه الحقيقة مرتبطة بالمثل. فهي حقيقة وهي مثل يضرب في ذات الوقت. .

هذا الماء الذي نزل بقدرة الله سالت منه أودية، كل واد بحسب سعته، وجرى الماء في الوديان فاحتمل السيل زبدا رابيا. . إلى هنا يتم تقرير هذه الحقيقة الواقعة التي تقع في الطبيعة، ويسجل السياق وجود الزبد مع اندفاع الماء، وهذه أيضًا حقيقة تقع في الطبيعة .

ولكن يأخذ المثل في التشكّل عند هذه النقطة، ثم يمضي شوطا آخر. .

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾

فالزبد ليس حادثا في «الطبيعة» فقط، بل فيما يصنع الإنسان كذلك. فالناس يوقدون على الذهب والفضة، ليصهروهما، ثم يشكلون من المادة المنصهرة حُليًا ومتاعا متعدد الأشكال، ولكن ظاهرة الزبد تلاحقهم أيضا فيما يصنعون. . وإلى هنا تتقرر حقيقة جديدة: أن الزبد ظاهرة ملازمة سواء في الطبيعة التي خلقها الله، أو فيما يصنع الإنسان بيديه. .

ويبدأ المثل يتشكل بصورة أوضح، وذلك حين يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾. فالحق والباطل موجودان متجاورين متلازمين في حياة الناس، بقدر من الله، ولكن لفترة من الوقت، ولمرحلة من المراحل. . ثم يأتي ما قدره الله وما قرره منذ الأزل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ وتلك هي النهاية التي تستقر فيها الأمور في وضعها الأخير. .

ولكي ندرك مرمى المثل لابد أن نشير إلى واقع الدعوة في الفترة المكية، وإلى حال المؤمنين يومئذ(١).

(١) سورة الرعد مختلف في كونها مدنية أم مكية، ويغلب على ظني ـ كما بينت في كتاب «دراسات قرآنية» ـ أنها مكية تحوي آيات مدنية. والله أعلم.

كان الباطل منتفشا في مكة، والمشركون ظاهرين، يجولون ويصولون، مزهوين بكثرتهم وقوتهم وغلبتهم على المؤمنين وقهرهم لهم. والمؤمنون في ضعفهم وذلهم وهوانهم على الناس كما وصف رسول الله ﷺ حاله وهو يشكو حاله إلى الله: «إليك أشكو ضعفي وذلتي وهواني على الناس»، والعذاب يُصَبّ عليهم صبا من جانب المشركين..

هنا مضرب المثل في صورتين: صورة الزبد الرابي فوق الماء، والزبد المغشّي للذهب والفضة المصهورتين..

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يسرّي عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين الغارقين في العذاب. إن ما هم فيه ليس هو نهاية المطاف! إنها مرحلة موقوتة.. ثم يتبدل الحال!

فأما السيل فبعد فترة يصفو، وينفثئ الزبد الذي يعلوه، ويذهب جفاء.. يذهب بددا.. ويبقى الماء يسقى الحرث والنسل، وينبت الزرع، وينتفع الناس به، ويفرحون بالخير الذي جاء معه.

وأما الزبد الذي يعلو الذهب والفضة في عملية الصهر فيلقي جانبا، ويذهب بددا، وأما المعدن الصافي فيبقي نقيا خالصا ينتفع به الناس.

ذلك هو المثل. أما الصورة «الموازية» المطلوب إبرازها فهي أن انتفاش الباطل وهيمنة الكفار في مكة زائلان بحول الله وقوته. ويبقى الحق، ويعلو، وينتصر، ويخلص له الجو، ويصبح هو القوة الممكّنة في الأرض، ويدخل الناس في دين الله أفواجا، بعد فترة الصراع التي يخوضها الحق مع الباطل: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

إنه مثل رائع، يجسد علو الباطل فترة من الوقت، ثم تبدده في النهاية وانتصار الحق..

ولكن روعته تزداد في الحس حين ينعم الإنسان النظر في تفصيلاته..

---

(١) سورة البقرة. ٢٥١.

من سنن الله أن يسبق انتصار الحق وتمكنه في الأرض فترة يعلو فيها الباطل وينتفش. ومن سنة الله في الوقت ذاته أن يبتلى المؤمنون على يد الكفار:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1].

ويبين الله حكمة الابتلاء في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.[2] فمحق الكافرين يأتي بعد تمحيص المؤمنين وتمحيص المؤمنين يأتي من خلال الابتلاء..

وتبلغ الروعة في المثل قمتها في تصوير حالة الابتلاء.. إنها «فتنة» ينصهر فيها المؤمنون كما يُفْتَن الذهب والفضة على النار[3]، كما ورد في سورة العنكبوت: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[4].

وفي عملية الانصهار التي تتم في الابتلاء تذهب أدران النفوس، وتصفو، وتَخْلُصُ لله، كما يذهب ما يعلق بالذهب والفضة من أوشاب، لا تزول إلا «بالفتنة» على النار، ثم يبقى الجوهر الصافي الذي يستمتع به الناس.

ألا إنه إعجاز..

* * *

يقول تعالى في سورة يوسف:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5].

«يَأْتِ».. من أين يأتي؟! إن المقصود أنه يعود مبصرا في التو واللحظة. ولكن الفعل «يأتي» يظل له إيحاؤه.. فما دلالته؟

---

(١) سورة العنكبوت: ٢، ٣. (٢) سورة آل عمران: ١٤١.
(٣) يقال في اللغة: فتن الذهب والفضة أى صهرهما على النار لينفى منهما الخبث.
(٤) سورة العنكبوت: ٢، ٣. (٥) سورة يوسف: ٩٣.

إن يعقوب عليه السلام لم يكن م غائبا فيأتي! فهو جالس مكانه لا يريم! ولكنه كان كالغائب . . فحين فقد بصره لم يكن «حاضراً» فيما حوله، يراه، ويتفاعل معه كما يتفاعل المبصرون! إنما كان «غائبا» ببصره عنه . . وحين يرتد بصيرا فإنه «يأتي» . . يأتي من غيبته التي كان فيها، ويصبح «حاضراً» فيما يحيط به من أشخاص وأشياء . .

وكلمة واحدة تعطي هذا المعنى العميق كله، وتجعل المشهد يتحرك بحركة «المجيء» بعد «الغياب»!

ألا إنه إعجاز . .

* * *

يقول تعالى في سورة النور:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(١).

مشهدان متقابلان تماما، ولوحتان متقابلتان . .

أقصى النور هنا، وأقصى الظلام هناك . .

هنا نور السموات والأرض، يفيض على المؤمنين، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لا تلهيهم عنها تجارة ولا بيع، والذين لا ينقطعون عن ذكر الله واليوم الآخر، فيتفضل الله عليهم برضوانه، ويدخلهم الجنة برحمته. ترى في وجوههم

(١) سورة النور: ٣٥ـ٤٠.

إشراقة النور، ونضرة النعيم . . وهناك ظلمات مدلهمة تحيط بالكفار، تنعدم فيها الرؤية تماما، وتحيط بهم الأعاصير، والموج الرهيب يقلب أجسادهم وأفئدتهم وهم في الظلام لا يرون من أين تأتيهم الأخطار، ولكنها تتناوشهم من كل جانب . .

لا يوجد أنور من هذا النور، ولا أظلم من هذا الظلام!

ولا يوجد أروع من هذا التقابل الذي ترسمه اللوحتان المتقابلتان، اللتان ترسمان بالألفاظ ما تعجز عن تصويره كل أدوات التصوير . .

وفي سياق واحد تتقابل الصورتان جنبا إلى جنب، فتنجذب القلوب إلى النور، ثم تفزع من الظلام فتستدير إلى النور، تستروح فيه الطمأنينة والأنس والإشراق.

ويختم السياق بهذه الحقيقة الهائلة: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ فكل مصدر يُلتمَس فيه النور غير المصدر الرباني لا ينير، وكل شيء غير نور الله ضلال، بل عبث وانقطاع، ووهم وخداع، ينتهي بصاحبه إلى الضياع في لجة الظلام . .

ألا إنه إعجاز . .

* * *

يقول تعالى في سورة الأعراف:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[1].

الآية في وصف الأمة اليهودية بعدما أداروا ظهرهم للهدى الرباني، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءهم بغير حق، وخالفوا أمر ربهم، وأخلدوا إلى الأرض بحثا عن المتاع الرخيص.

وفي كلمة واحدة من كلمات الآية ينكشف الوضع كله، وتتضح معالمه، وتتبين أسبابه:

﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾.

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٩.

هذا سر الموقف كله . .

لقد صار الكتاب الذي يحمل الوحي الرباني تراثًا، يُحتفظ به، ويُعتز بذكراه، ويُتفاخر به، ولكن لا يُعمل به في واقع الحياة.

إنه كتاب الآباء والأجداد، ولكنه ليس كتابهم هم! وهم ورثوه عن الآباء والأجداد، ولكنهم لا يَعُدُّونه موجها إليهم، ولا ملزما لهم ليعملوا به! إنما التزم به الآباء والأجداد الذين أنزل إليهم. أما هم ففي واد آخر، وفي شغل آخر، لا علاقة له بالكتاب! إنهم يبحثون عن عرض الحياة الدنيا، وذلك شغلهم الشاغل. ولكنهم في الوقت ذاته متعلقون بذكرى الكتاب! وذكرى الكتاب توهمهم أنهم لن يعاقبوا على أعمالهم التي يرتكبون فيها ما حرم الله، لأن ذكرى الكتاب ستحميهم من ذلك العقاب، وستجلب لهم مغفرة الرب الذي يكفرون به وبآياته، ويزعمون في الوقت ذاته أنهم أبناؤه وأحباؤه!

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

والانشغال بعرض الدنيا ليس أمرا عارضا في حياتهم إنما هو ديدنهم: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ فهم يسعون دائما إليه، وإن جاءهم لا يفوتونه!

وليس شيء من ذلك كله عن جهل منهم بما أمرهم به الله وما نهاهم عنه. . فهم يعرفون ذلك جيدا. فقد درسوا الكتاب. . ولكنها دراسة التراث لا دراسة العمل والتنفيذ! ويختم السياق بتذكيرهم بالحقيقة الغائبة عن حسهم: ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾

إنها آية واحدة، ولكنها تصف حال أمة بأكملها، وتصفها الوصف الذي يكشف نقاط الخلل فيها، ومظاهر الانحراف وأسبابه: وراثة الكتاب، والانكباب على عرض الحياة الدنيا، ونسيان الآخرة. .

هل بقي شيء من حال تلك الأمة لم تبينه تلك الآية المعدودة الألفاظ؟

ألا إنه إعجاز . .

* * *

تلك مجرد نماذج من الإعجاز البياني في القرآن الكريم، من ألوان مختلفة، في مجالات مختلفة. والقرآن حافل بمثل هذه النماذج، إلى درجة لا يملك حسّ ألا يتأثر بها، أو أن يتغافل عنها. فلا عجب في أن يكون القرآن هو معجزة الرسول ﷺ إلى القوم الذين يعتزون بفصاحتهم، ويتيهون بها على الخلق. ولا عجب في أن يتحداهم فيعجزوا عن إجابة التحدي، ولو جحدوا بها كبرا وعنادا وجفاء وقسوة قلب.

ولكن الإعجاز في القرآن الكريم لا ينتهي عند هذا الحد. . و إنما هذه بدايته!

إن الإعجاز البياني هدف مقصود بذاته، يتحدى المنكرين والمعاندين، ليعلموا في دخيلة أنفسهم صدق الرسالة وصدق الرسول ﷺ، ولتقوم عليهم الحجة ولو جحدوا وأنكروا. .

ولكنه في الوقت ذاته وسيلة لغايات أخر!

إنه وسيلة للدعوة. ووسيلة لإخراج خير أمة أخرجت للناس. ووسيلة لبيان المنهج الرباني الذي يريد الله للبشرية كلها أن تتبعه لتنعم بالطمأنينة والبركة والفلاح في الدنيا والآخرة. .

إن الله يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد. ولكنه يدعوهم بهذا الأسلوب الفائق الذي يبلغ حد الإعجاز.

والله يربي الأمة التي آمنت به تربية دقيقة عميقة فذة شاملة تشمل كل جوانب كيانهم. ولكنه يربيها بهذ الأسلوب الفائق الذي يبلغ حد الإعجاز.

والله يريد أن يضع لهذه الأمة منهج الحياة الذي تسير عليه ليكتب لها التمكين في الأرض، ولتكون رائدة لكل البشرية. ولكنه يبين لها المنهج بهذا الأسلوب الفائق الذي يبلغ حد الإعجاز.

وهكذا يكون الإعجاز البياني هدفا في ذاته، وفي الوقت ذاته وسيلة تحمل ألوانا أخرى من الإعجاز.

وهذا نفسه إعجاز فوق إعجاز!

من الإعجاز الدَّعَوي

ونقصد بالإعجاز الدعوي: الإعجاز في بيان العقيدة الصحيحة بكل تفصيلاتها، والإعجاز في الوصول بها إلى مكامن النفوس بحيث تستقر فيها وترسخ نقية صافية من كل غبش، و الإعجاز في تحويلها ـ بعد بيانها وترسيخها ـ إلى قوة فاعلة في شتى مجالات الوجود الإنساني.

والعقيدة التي جاء بها القرآن هي التوحيد. وهي عقيدة الأنبياء جميعا من لدن آدم ونوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا. ولكنها لم تكن قط في أي كتاب أصفى منها في القرآن الكريم، ولا دخلت إلى نفوس الناس من كل منافذها وأقطارها كما دخلت عن طريق هذا الكتاب، ولا كانت قط مؤثرة في واقع الحياة على أوسع نطاق كما انبثقت من هذا الكتاب.

ولا عجب في ذلك، فالقرآن هو كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، التي اكتمل بها الدين، وتمت بها النعمة، وأخرجت خير أمة:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

* * *

إن كون الله هو الرب، وهو الخالق، عقيدة لا تحتاج إلى إرسال رسول، فهي كامنة في أعماق الفطرة:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[3].

---

(١) سورة المائدة ٣.
(٢) سورة آل عمران: ١١٠.
(٣) سورة الأعراف: ١٧٢.

وما أرسل رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها، فالفطرة تعرف ذلك بغير رسول. ولا أرسل رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها فاعبدوه. فالفطرة تتجه تلقائيا إلى عبادة الإله الذي تؤمن به.

إنما أرسل الرسل جميعا ليقولوا للناس: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[1].

ذلك أن مشكلة البشرية الكبرى لم تكن إنكار وجود الله، إنما كانت هي الشرك. ودعك مما سرى في الجاهلية المعاصرة من إلحاد ينكر وجود الله، فقد نشأ من ظروف خاصة، وله شياطينه الذين ينفخون فيه. ولكنه لون خاص من الانحراف لم يقع بصورته تلك في أي جاهلية من جاهليات التاريخ.

والذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[2] وسُموا بالدهريين، كانوا على وجه اليقين منكرين للبعث، ولكن الآية لا تدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا ينكرون وجود الله. فقد نسبوا الموت إلى الدهر بمعنى مرور الزمن، أي أنهم يولدون، ويحيون حياتهم، ثم يهلكون بمرور الزمن، ثم لا يبعثون مرة أخرى بعد الموت. وهؤلاء كانوا مطموسي البصيرة بلا شك، ولكنا لا نستطيع أن نقطع بأنهم كانوا منكرين لوجود الله، وإن أنكروا قدرة الله على البعث. فقد كان مشركو العرب ينكرون البعث، ولكنهم مع إنكارهم هذا - إذا سئلوا «من خلق السموات والأرض» يقولون الله. وإذا سئلوا من خلقهم يقولون الله، كما سجل القرآن عليهم:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[4].

وأيا كان الأمر، فلئن وجد في القديم قلة من الناس ينكرون وجود الله - وهو أمر مشكوك فيه - فلم يحدث قط - إلا في الجاهلية المعاصرة - أن أصبح هذا اللون من الإلحاد «دينًا» يدين به ملايين من البشر، لظروف بيناها في غير هذا الكتاب، وقام شياطين الإنس بنشره في الأرض، وتبنته الشيوعية دينا رسميا لدولتها. ولكن ما أن انهارت الشيوعية حتى عاد الناس في روسيا ذاتها إلى معتقداتهم الدينية السابقة، وأقروا بوجود الله، أيّا كان في معتقداتهم من انحراف!

* * *

---

(١) سورة هود: ٥٠، ٦١، ٨٤.
(٢) سورة الجاثية ٢٤
(٣) سورة لقمان. ٢٥
(٤) سورة الزخرف ٨٧.

المرض الأكبر إذن في الجاهليات هو الشرك، وهو الذي أرسل كل رسول لينتزعه من نفوس قومه. ثم أرسل الرسول الأعظم ﷺ لينتزعه من قلوب البشرية جمعاء، فآمن به من قُدّر له الهدى، وأبى من أبى بقدر من الله.

والشرك ـ وتوابعه ـ يسميها الله سبحانه وتعالى «عبادة الشيطان».

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١].

والأصل في الفطرة هو التوحيد، ولكن الشياطين يحاولون دائما إخراج الناس من صفاء التوحيد إلى كدر الشرك:

«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين»[٢].

وهذا الاجتلاء يأخذ صورا شتى:

منها تأليه الجن والملائكة والشمس والقمر والنجوم والحجر والشجر، والزعم بأنها آلهة تعبد مع الله أو من دونه..

ومنها ادعاء الولد لله..

ومنها الاعتقاد بأن كائنا من كان له مشاركة مع الله في الخلق أو التدبير، أو له شفاعة مقبولة عند الله فيعبد ليقرب الناس من الله زلفى..

ومنها إنكار الوحي والرسالات..

ومنها إنكار البعث..

ومنها التحليل والتحريم (أي التشريع) بغير ما أنزل الله..

ومنها اتباع الهوى والشهوات..

وهي كلها انحراف عن عقيدة التوحيد، ورفض لإخلاص العبادة لله وحده بلاشريك.

---

(١) سورة يس. ٦٠، ٦١.　　(٢) أخرجه مسلم.

ولها أسباب شتى، ولكنها تؤدي في النهاية إلى شيء واحد هو الكفر بالله.

وقد ينشأ الكفر من تعظيم زائد لأشخاص من البشر يصل إلى حد التقديس، كما حدث في عبادة الأصنام.

وقد ينشأ من فساد في الفطرة يهبط بها عن حالتها السوية التي فطرها الله عليها، والتي تتسع للإيمان بما تدركه الحواس (عالم الشهادة) والإيمان بما لا تدركه الحواس (عالم الغيب)، فتنحصر في الإيمان بما تدركه الحواس، وتنشئ آلهة محسوسة، تتعبدها بدلا من الله الذي ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[1].

وقد ينشأ من الاستكبار عن عبادة الله.

وقد ينشأ من اعتداد الإنسان بنفسه وقوته اعتدادًا زائفًا يخيِّل إلى صاحبه أنه ذو قوة ذاتية فاعلة بذاتها.

وقد ينشأ من الطغيان والتجبر على الناس، فيدعي الطاغية الألوهية لنفسه، ويلزم الناس بأداء شعائر التعبد له، أو يستعبدهم بالتشريع لهم بغير ما أنزل الله، وإخضاعهم لتشريعه، ومعاقبتهم إذا خرجوا على شرعه.

وقد ينشأ من تضخم الذات، فيعبد الإنسان ذاته، أو بالأحرى أهواءه وشهواته..

والإعجاز في كتاب الله أنه يعرض لهذه الأسباب كلها، لا يغادر شيئا منها. فيبرزها، ويندد بها، ثم يعالجها.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[2].

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[3].

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[4].

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام. ١٠٣.
(٢) سورة يونس ١٨.
(٣) سورة سبأ: ٣٥.
(٤) سورة القصص: ٧٨.
(٥) سورة العلق: ٦، ٧.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾(١) .

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾(٢) .

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٣) .

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾(٤) .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾(٥) .

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٦) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾(٧) .

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(٨) .

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(٩) .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾(١٠) .

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١١) .

---

(١) سورة فصلت : ١٥ .

(٢) سورة القصص ٣٩٠ .

(٣) سورة يس : ٧٧ ، ٧٨

(٤) سورة الكهف : ٣٥ ، ٣٦

(٥) سورة سبأ : ٧ ، ٨ .

(٦) سورة ص : ٤ ، ٥

(٧) سورة غافر : ٥٦

(٨) سورة الجاثية . ٢٣

(٩) سورة الروم : ٢٩ .

(١٠) سورة إبراهيم : ٣٠

(١١) سورة الأعراف : ٢٨

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢).

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾(٣).

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾(٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٥).

تلك على وجه الإجمال كانت أفكارهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم التي يعيشون فيها، والتي تصدهم عن الإيمان بالله واليوم الآخر والوحي والنبوة، ولها في حسهم ثقل الأمر الواقع من جهة، وثقل الأمر الموروث من جهة أخرى. فلاهم يتصورون إمكان تغييرها، ولا إمكان الخروج عليها، وهي تقاليد الآباء والأجداد، في بيئة شديدة المحافظة على التقاليد، وعلى موروث الآباء والأجداد. وفضلا عن ذلك فهم يتوهمون أنهم على دين إبراهيم، ويحتفظون ببعض ما كان في دين إبراهيم عليه السلام، فيعظمون الكعبة، ويحجون إلى البيت الحرام، وإن كانوا يرتكبون في حجهم مخالفات ما أنزل الله بها من سلطان.

وكانت قريش خاصة ـ التي بعث من بينها رسول الله ﷺ، والتي وجهت إليها الدعوة أول ما وجهت، إذ قال الله لرسول ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٦) ـ كانت تُدلّ على العرب كلهم بسدانة الكعبة، وعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فكانت تَعُدُّ نفسها الرئيسة الدينية، التي تقول فتطاع، وليست التي تتلقى أوامر من أحد، فضلا عن أن تكون هذه الأوامر نقضا كاملا لأفكارها ومعتقداتها.

---

(١) سورة النحل. ٢٤، ٢٥
(٢) سورة لقمان. ٧.
(٣) سورة الروم: ٥٨.
(٤) سورة السجدة: ١٠.
(٥) سورة البقرة: ١٧٠.
(٦) سورة الشعراء: ٢١٤

لذلك كانت الحرب شديدة على العقيدة الجديدة، وكان اللدد في الخصومة، والعنف في المواجهة، والمبالغة في الصد..

وكان القرآن هو الرد على ذلك كله. هو الدعوة. وهو المواجهة. وهو المجاهدة. وهو أداة التغيير: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[1].

﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[2].

ومرة بعد مرة يتنزل القرآن ليبين العقيدة الصحيحة من جهة، وليفند أوهام المشركين واعتراضاتهم من جهة أخرى، تارة ببيان ما اشتملت عليه من سخف لا يقبله منطق ولا عقل، وتارة ببيان الأسباب الدافعة لهم إلى التمسك بالشرك وعدم الإقلاع عنه، وأنها أسباب تنبع من انطماس في البصيرة، وانحراف في الفطرة، وفساد في السلوك، وكلها أمراض لا يشرف إنسانا عاقلا أن يحملها، فضلا عن أن يعتز بها وينافح عنها!

وكانت الأداة الكبرى في كل ذلك هي تعريف الناس بحقيقة الألوهية، وبتفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والرزق والإنشاء والهيمنة والتدبير، وانتفاء هذه الصفات كلها عن الآلهة المزعومة التي يتمسكون بها، بحيث يتبين عجزها وهزالها، فتسقط ألوهيتها المزعومة، ويسقط بالتالي استحقاقها للعبادة مع الله أو من دونه..

وكان الأمر في حاجة إلى مواجهة طويلة عميقة شاملة دقيقة، حتى تنجاب الصلادة التي تحجب الحق عن القلوب، فتهتدي تلك القلوب الضالة إلى الحق، وتدخل في دين الله.

* * *

إذا تأملنا سورة العلق ـ أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ ـ نتبين كيف بدأ التعريف بالله سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]، بدأ بذات

---

(١) سورة الفرقان: ٥٢.　(٢) سورة إبراهيم: ١.　(٣) سورة العلق: ١ ـ ٥.

المعلومات التي كانت معلومة عند العرب من قبل، ولكن بإضافة جديدة تجعلها حية وفاعلة.

فأما أن الله هو الخالق الذي خلق السموات والأرض وخلق الإنسان فقد كان حقيقة مسلمة عندهم لا ينكرونها ولا يجادلون فيها، كما سجل القرآن عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1]. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2]. وكونه خلق الإنسان من علق، أو من نطفة، أو من منيّ يمنى، فقد كان معلوما عندهم كذلك، فقد سجل القرآن عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾[3]. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ﴾[4].

ولكن هذه المعلومات كانت بالنسبة لهم كالبذرة الميتة لا تُنْبت، لا لأن من شأنها ألا تنبت، ولكن لأن تربتها ـ وهي القلوب ـ جفت وقست، وران عليها ما طمر البذرة فقتلها، ولقد كانت قمينة لو القلوب سليمة والنفوس صحيحة أن يكون لها مقتضى في مجرى حياتهم..

فالآن يأتي القرآن فيرفع الران الذي طمر البذرة فمنعها من الإنبات، ويضع بذرة جديدة من ذات النوع، ولكن في تربة جديدة مهيأة للإنبات..

﴿اقْرأْ﴾..

اقرأ الدلالة الكامنة في هذه الحقيقة الكبرى، وهي أن الله هو الخالق، وأنه خلق الإنسان من علق..

إنها حقيقة هائلة حين يتدبرها الإنسان بقلب واع وفكر متفتح.. معجزة الخلق.. خلق السموات والأرض من العدم . وخلق الإنسان من نطفة إذا تمنى..

إذا كنت لم تقرأ هذه الدلالة من قبل فاقرأها الآن على صوت هذا النداء: ﴿اقْرأْ﴾!

اقرأها جيدا.. اقرأها مليا.. تتضح لك دلالتها..

---

(١) سورة الزمر ٣٨. (٢) سورة الزخرف ٨٧.

(٣) سورة المعارج: ٣٩. (٤) سورة الواقعة: ٦٢.

دلالتها أنه إله واحد هو الذي ينبغي أن يعبد، وليس سواه . . الإله الذي خلق . . خلق السماوات والأرض من العدم، وخلق الإنسان من علق . .

فإذا فرغت من قراءة تلك الحقيقة الهائلة، واتضحت لك دلالتها، فاقرأ حقيقة أخرى، قمينة بأن تملأ قلبك بالحب والود والتعظيم لذلك الإله الخالق . . إنه ربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم . .

حقيقة أخرى هائلة . . فالطفل يخرج إلى الحياة بلا علم ولا معرفة ولا إدراك . . ثم يتعلم . . كيف يتعلم؟ لو لم يكن الله قد أودع فيه القدرة على التعلم فهل كان يمكن أن يتعلم؟! إن القلم هو أداة التعليم . . نعم! ولكن ضع القلم عند كائن لم يوهب القدرة على التعلم ، فهل يعلمه القلم، أم الذي يعلمه هو الذي خلقه، وخلق فيه القدرة على التعلم؟

أي إكرام من ربه الأكرام، الذي خلقه على هذا النحو، وفضله ـ بميزته تلك ـ على كثير ممن خلق! ما الذي يجعل القلب البشري يغفل عن تلك الدلالة الهائلة فلا يقرؤها؟!

إنه الران الذي يطمس البصيرة ، ويحجب النور!

﴿كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ ⟨٦⟩ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ﴾[(١)]!

هذا الوهم الضخم الذي يحيط بالإنسان فَيَغْفُلُ وينسى . .

يَغْفُلُ عن حقائق الكون والحياة، فينسى الخالق الذي خلق، الذي أوجد كل شيء بقدرته، والذي لا يوجد شيء بغير مشيئته وقدره وقدرته . . ويتوهم أنه مستغن بذاته، بحوله وطوله، بقدرته وقوته، بعقله وعلمه، بفكره وإرادته ، عن الله الذي خلقه فسواه فعدله، في أي صورة ما شاء ركبه.

وحين ينسى فإنه يطغى . .

يطغى ، فيتمرد على الخالق الذي خلقه، فلا يعبده حق عبادته، ويعبد سواه . .

ويظن أنه حر يفعل ما يشاء . . يفعل ما يمليه عليه هواه . . فمنذا الذي يحاسبه على ما يفعل؟!

كلا!

---

(١) سورة العلق : ٦ ، ٧.

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾[1]!

ليس متروكا لهواه . . ليس متروكا يفعل ما يشاء بلا حساب ولا عقاب . .

إنه راجع إلى ربه يحاسبه على ما جنت يداه . .

وتلك المعاني كلها كانت في تلك الإقراءة الأولى، التي افتتح بها الوحي الرباني، والتي غيرت القلوب ، فجعلت البذرة تنمو نموها السويّ، فتُنبِتُ الإيمان . .

* * *

وتتوالى الآيات . . تتوالى تعرف الناس بربهم ، بما يعرفون وما لا يعرفون . .

فأما ما يعرفون ـ كحقيقة أن الله هو الخالق، وهي الحقيقة الكبرى التي ركز عليها القرآن في تعريف الناس بربهم ـ فطريقة القرآن فيها ، كما أشرنا في المثال السابق، هي إزالة الركام الذي طمرها فجعلها لا تؤدي مقتضاها الطبيعي، وهو عبادة الله وحده بلا شريك، واحياؤها في طريقة عرضها ، وربطها بالقدرة الإلهية بالطريقة التي تهز الوجدان فينفعل بها ، فيتفتح للإيمان بالله .

وأما ما لا يعرفون ـ أو ما ينكرون ـ كالبعث والنشور، والوحي والرسالة ، فيضاف إلى معلوماتهم بالطريقة ذاتها التي تجعل الوجدان ينفعل فيتأثر ، فيستجيب لداعي الإيمان .

وهنا يأتي دور الإعجاز البياني ، فيؤدي مهمته في هذا المجال .

فطريقة العرض أولا هي التي تحيي المشاهد ، فتزيل عنها مايصيبها في نفوس الناس من تبلد الحس عليها بسبب الألفة الطويلة ، فإذا هي في السياق القرآني شيء آخر غير ما تبلد الحس عليه ، جديد حيّ متحرك .

والتنويع كذلك يؤدي دوره . فالنفوس التي كانت منكرة أو كانت غافلة ، كانت في حاجة إلى تكرار القضايا مرات ومرات حتى تزول الغفلة ويذوب الإنكار .

---

(١) سورة العلق . ٨

وتكرار الشيء ذاته بنفس الألفاظ ونفس الصورة يبعث السأم في النفوس . ولكن التنويع في العرض له من الجاذبية ما ينفي السآمة ، بل يجدد الرغبة ، ويجدد الانتباه ، ويجدد التأثير . وهكذا ، فالقرآن كما جاء في وصفه : «لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد» فهو متجدد أبدا في النفوس ، يعرض الأمور في كل مرة كأنها جديدة تعرض لأول مرة .

وهذا الذي أشرنا إليه آنفا : أن الإعجاز البياني في القرآن هدف مقصود في ذاته ، وهو في الوقت ذاته وسيلة لأهداف أخر .

* * *

ويدخل القرآن إلى النفوس في قضايا العقيدة من كل منافذها وأقطارها ، فلا يترك منفذا لا ينفذ منه ، ولا يترك مدخلا لا يطرقه ليوصل العقيدة الصحيحة إلى القلوب .

وإذا كانت الوسيلة العظمى ـ كما أشرنا آنفا ـ هي تعريف الناس بربهم ، ليعبدوه وحده بلا شريك ، حين يدركون تفرده سبحانه بالألوهية ، وعجز الآلهة المزعومة عن القيام بشيء مما يقدر الله عليه ، ففي النفس البشرية منافذ فطرية ، أودعها الله في الفطرة لتتعرف على خالقها ، وتتوجه إليه بالعبادة ، ومن هذه المنافذ بالذات ـ المودعة في الفطرة ـ ينفذ القرآن إلى النفوس ، فيوقظها من غفلتها ، فتنبعث متوجهة إلى الله . ولا عجب في ذلك ، فالله هو خالق الفطرة ، وهو منزل القرآن ليلتقي بالفطرة التقاء كاملا شاملا مفصلا دقيقا ، فيلتقيان على تعارف كامل وتوافق واتساق !

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

* * *

الكون بضخامته المعجزة يروع الحس البشري ، فيروح يتأمل في هذه الضخامة التي يعجز عن الإحاطة بها ، فيرد على الخاطر سؤال فطري لا يملك الإنسان دفعه : من خالق هذا الكون؟ فيهتدي إن كتب له الهدي ، فيعلم أن الله هو الخالق ، أو يضل

---

(١) سورة الروم : ٣٠

فيتصور إلها آخر أو آلهة أخرى غير الله ينسب لها الخلق. ولكنه ـ حتى في ضلاله ـ لا يتصور أن الكون يمكن أن يوجد بغير خالق (ودع عنك ضلالات الجاهلية المعاصرة التي ألحدت نتيجة ظروف خاصة في أوربا غير مسبوقة في البشرية. وحتى هذه لم تستطع أن تتهرب من هذا السؤال الفطري، فنسبت الخلق إلى «الطبيعة!» التي قال عنها دارون إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق! فابتدعت إلها خالقا ـ غير الله ـ وأضفت عليه بعض صفات الله سبحانه وتعالى كالخلق والتدبير، ولكن كانت أهم صفة في هذا الإله المزعوم أنه ليست له كنيسة تضطهد الناس، وتطاردهم في يقظتهم ومنامهم! وتلك كانت عقدة الجاهلية المعاصرة التي أدت بها إلى الإلحاد!)[1]

والكون بدقته المعجزة يروع الحس البشري كذلك. فهذا الكون ليس ضخما فقط، وليست ضخامته التي تتجاوز كل تصور هي وحدها التي تروع الحس، ولكن يروعه كذلك أنه مع ضخامته تلك دقيق إلى درجة معجزة..

وتتبدى الدقة المعجزة في مجالات عدة. فانتظام دورة الفلك، وانتظام الليل والنهار، من دلائل تلك الدقة التي تروع الحس.

وتوزيع الكائنات الحية على سطح الأرض من دلائل الإعجاز.

وتصريف الرياح، وحركة السحاب..

واختلاف الألوان في الكائنات، سواء الكائنات الحية أو الجوامد..

بل يدق الأمر أحيانا حتى يتبدى الإعجاز في ريشة الطائر، ولون الزهرة، ورفرفة الطير، وسقسقة العصفور، فضلا عن أطوار الجنين، واختلاف طبائع البشر، واختلاف مشاعرهم ومشاغلهم وطرائق حياتهم..

دقة تروع الحس.. فيرد على الخاطر سؤال فطري، لا يملك الإنسان دفعه مَن وراء هذه الدقة المعجزة؟ مَنْ وراء هذا التنوع العجيب في الكائنات؟ مَنْ يدبر دقائق الكون ودقائق الحياة؟

---

(١) انظر ـ إن شئت ـ حديثا مفصلا عن هذه القضية في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

ثم يهتدي الإنسان إن كتب له الهدى ، فيعلم أنه الله ، أو يضل فينسب الأمر إلى آلهة مزعومة ، أو يَغفُل عن إيقاعات الكون غفلة تامة فكأنه في حسه غير موجود . .

وظاهرة الموت والحياة مما يروع الحس البشري . .

يتوهم الطفل الصغير في مدإ حياته أن الكائنات كلها حية ، ويتعامل معها على هذا الأساس! حتى يكبر وعيه ، فيعلم أن هناك جوامد وهناك كائنات حية ، ثم يعلم أن الكائنات الحية تموت . . ويترك الموت في حسه أثرا لا يمحي ، بل يزداد تعمقا مع الأيام . . فيرد على خاطره سؤال فطري لا يملك دفعه : مَنْ وراء هذه الظاهرة الهائلة : ظاهرة الموت والحياة . . ثم يهتدي إن كتب له الهدى ، أو يضل فيقول إنه الدهر أو غيره من قوى الوجود .

والحركة في الكون مما يروع الحس البشري . سواء حركة الأجرام في السماء ، أو حركة البشر على الأرض ، وما يحدث لهم من تحولات في أثناء حياتهم ، من قوة وضعف ، وفقر وغنى ، وعزّ وذل ، وصحة ومرض ، وحياة وموت . . فيرد على الخاطر سؤال فطري لا يملك الإنسان دفعه : مَن المحرك وراء الأشياء والأحداث؟ . . أتحدث من تلقاء نفسها أم تحدث بتدبير؟ ومن وراء التدبير؟ وهل تحكمها سنن وضوابط ، أم تجري فوضى بلا نظام؟ وهل وراءها حكمة أم هي عبث لا حكمة فيه؟ ثم يهتدي الإنسان إن كتب له الهدى ، فيعلم أنه الله ، ومشيئته ، وسننه ، ونظامه وتدبيره ، أو يضل فينسب الأمر إلى آلهة مزعومة ، أو يظنها فوضى لا يشملها نظام .

والمفارقة بين العجز البشري والقدرة التي لاتحدها حدود ، مما يروع الحس البشري . . فالإنسان يتطلع إلى القوة والسيطرة والتملك ، ويحصّل من ذلك ما يقدر عليه ، ولكنه في دخيلة نفسه لا يشبع ولا يقنع ، ويتمنى لو أن له سيطرة على كل شيء ، يسيره على هواه ، وقوة لا تعجز عن شيء ، وملك لايبلى . . ثم يجد نفسه عاجزا مهما سيطر ، ومهما ملك ، ومهما استخدم من أسباب القوة . وأشد ما يعجز عنه هو الخلق ، ثم يتدرج العجز درجات!

وهذا العجز يفرض على حسه تلك المقارنة الفطرية بين ما يقدر عليه وبين القدرة

القادرة التي تخلق ، وتنشئ ، وتسيّر وتدبّر ، ولا يعجزها شيء . ثم يهتدي فيعلم أنها قدرة الله ، أو يضل فيتخيل آلهة لا وجود لها ينسب إليها ما يراه من أحداث .

وقضية الغيب مما يعرض للحس البشري فيوقظه من غفلته إن كان من الغافلين . فالإنسان شديد التطلع إلى معرفة الغيب . يريد أن يطمئن على ما يكون من أمره في الغد القريب والغد البعيد . هل يعيش طويلا أم يخترمه الموت؟ هل سيكون سعيداً في مستقبل حياته أم تعتوره الأزمات والآفات فتنغص عليه عيشه؟ هل يكون غنيا أم فقيرا؟ هل يتزوج أم لا يتزوج؟ هل يكون له ولد أم لا يكون؟ هل يحصل على مكانة عالية في الأرض أم يكون هملا لا وزن له؟

ويؤلمه أنه لا يستطيع أن يستكنه الغيب . . لا الغيب البعيد الموغل في المجهول ، بل الغيب القريب الذي يكون غدا أو بعد ساعات . . بل غيب اللحظة المقبلة عليه الآن ، والتي لا يعرف كنهها وكنه ما يجري فيها حتى تقع بالفعل . .

ويجره عجزه عن استكناه الغيب إلى مقارنة فطرية مع القوة التي تعلم الغيب ، لأنه مكشوف لها غير خافٍ عليها منه شيء . بل التي تعلم الغيب لأنها هي التي تصنع الغيب . .

ثم يهتدي ، فيعلم أنه الله ، عالم الغيب والشهادة ، أو ينسبه لآلهة مزعومة ، أو يغمض عينيه ويغلق حسه ويعيش كالأنعام!

* * *

تلك مفاتيح فطرية . . أودعها الله في الفطرة لتتعرف على الله . .

وقد نظن أحيانًا أن هذه الأسئلة الفطرية التي تفرض نفسها على الحس البشري ، لا تجيء إلا في فترة النضوج والوعي ، ولكن الحقيقة غير ذلك .

إن الطفل الصغير تبدأ هذه الأمور تخطر على حسه في مراحل مبكرة جدّا ، أكثر تبكيراً مما نحسب!

إنه في فترة باكرة ، منذ بداية الوعي ، يظل يسأل والديه ومن حوله أسئلة ذات دلالة واضحة ، حين يسألهم عن أمور لا إجابة لها في الحقيقة إلا إجابة واحدة : إنه الله . وإنه صنع الله!

حين يسأل: لماذا تطلع الشمس بالنهار ولا تطلع بالليل؟

لماذا يكون ورق الشجرة أخضر؟

لماذا لا يكبر هو بسرعة فيصبح كأبيه في الطول؟

لماذا كان ريش هذا الطائر ملونا والآخر غير ملون؟

كيف ينزل المطر من السماء؟

كيف ينبت الزرع؟

وعشرات من الأسئلة ومئات، يضيق بها الأبوان أحيانا، ويعجزان عن إعطاء إجابة تقنع ذلك الصغير الذي لا يكف عن السؤال، بينما مداركه لا تستوعب الجواب!

إنه بدء تيقظ الفطرة لتبحث عن الله!

وقد لا يدرك الطفل دلالة أسئلته.. لكننا نحن ينبغي أن ندرك أنها أسئلة الفطرة، التي تتوجه بها ـ فطريا ـ للتعرف على الله.

ولكن الحس البشري عرضة أن يتبلد على المنظر المكرور، والحدث المكرور، فلا تعود إيقاعات الكون تجد استجابتها الفطرية في النفس..

لا الكون بضخامته المعجزة، ودقته المعجزة، ولا ظاهرة الموت الحياة، ولا ظاهرة الحركة: حركة الأشياء والأحداث، ولا ظاهرة العجز البشري، ولا ظاهرة العجز عن استكناه الغيب..

عندئذ يفقد الإنسان شفافيته التي خلقها الله في كيانه، ويفقد بالتالي سمَتَهُ التي جعلته إنسانا، وميزته عن الحيوان، فيصبح من الذين جاء فيهم هذا الوصف القرآني:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف ١٧٩.

فيأتي القرآن ليوقظ القلوب، ويفتح الأعين، ويزيل الوقر من الآذان، فتتفتح جميعا للإيقاعات التي يرسلها الكون إلى الحس . . فتحيا النفوس بعد موات، وتستيقظ بعد الغفلة . . وتتوجه إلى الله .

* * *

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١] .

لوحة عريضة واسعة حافلة بالحيوية والحركة، والإيحاءات والدلالات . .

إنها مشاهد معروضة أمام الحس البشري، ولكن الحس يتبلد أحيانا فيغفل عما فيها من الإيحاءات والدلالات، ويمر بها لايكاد يعيرها اهتماما . ولكن القرآن يحيي المشهد بأسلوبه الفريد، فينتفض حيا متحركا، فيلتقط الوجدان ما يرسله من الإشارات .

إن السموات والأرض المذكورة في الآية ليست هي ذلك المشهد المكرور المألوف الذي كان يراه الإنسان فلا يتحرك له، ولا يهتز له وجدانه، فيغفل عن الحقيقة الكبرى الكامنة فيه، وهي أن السموات والأرض مخلوقتان، وأن الله هو الخالق!

إن الحس المتبلد يراهما موجودتين دائما أمامه، فيغفل وينسى!

ولكن السياق القرآني يوقظه من أول لفظة إلى الحقيقة المنسية . .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . .﴾ . فهما ليستا موجودتين من ذات نفسيهما، ولا هما أزليتان . إنما هما مخلوقتان، أي أنهما لم تكونا موجودتين ثم وجدتا . .

وهي حقيقة هائلة، تترتب عليها ـ أو يجب أن تترتب عليها ـ حقائق أخرى .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٣، ١٦٤ .

فأما الجاهلية العربية فقد كانت تقر أن الله هو الذي خلق السموات والأرض : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1] . ولكنها لم تكن ترتب على هذه الحقيقة مقتضاها الطبيعي المباشر ، وهي أن الإله الذي خلق هو الحقيق بالعبادة وحده بلا شريك .

وأما الجاهلية المعاصرة ـ وهي أذكى من الجاهلية العربية من ناحية ، وأغبى منها من ناحية أخرى ـ فقد أدركت أن هذه القضية ذات شأن كبير ، وأنها إحدى قضايا الوجود الرئيسة . وأدركت أنها إن أقرت بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض فقد لزمها أن تعبده ، وتخلص له العبادة ، وهي لا تريد ـ كبرا وعنادا وغطرسة وانطماس بصيرة ـ فنفت أن الله هو الخالق ، وراحت تتخبط على غير هدى . تقول مرة إن الكون قد وجد من ذات نفسه بغير موجد ، وتارة أخرى تردد قولة دارون الحمقاء : الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق !

كلتاهما جاهلية ! وكلتاهما في حاجة إلى هداية الله !

ونعود إلى الآية القرآنية نستلهمها إشاراتها الدافقة ، وحقائقها ذات الدلالة . .

إن خلق السموات والأرض قد نشأت عنه حركة معينة في هذا الكون ، د اختلاف الليل والنهار . .

ولئن كانت الحقيقة الأولى تنفذ إلى النفوس الواعية من أحد منافذها الكبرى ، وهي الضخامة المعجزة في هذا الكون وما يدل عليه ذلك من عظمة الخالق ، الذي يخلق تلك الأجرام الهائلة المبثوثة في السموات ، فإن الحقيقة الثانية ـ وهي اختلاف الليل والنهار ـ لتنفذ إلى النفوس الواعية من منفذين في آن واحد : منفذ الحركة ـ حركة الأحداث في هذا الكون ـ ومنفذ الدقة المعجزة في خلق الكون . فإن انتظام الأفلاك ، الذي ينشأ منه تعاقب الليل والنهار له دلالته الخاصة ، المضافة إلى القدرة على الخلق ، وهي القدرة على التنظيم الدقيق لهذا الكون ، بحيث لا يختل مرة ، فيكون فيه نهار بلا ليل ، أو ليلٌ بلا نهار . وتلك دلالة أخرى على عظمة الخالق ، وأنه متفرد بهذه العظمة لا يشاركه فيها أحد في الوجود كله .

---

(١) سورة لقمان . ٢٥ .

وتمضي الآية تعدد آيات القدرة الربانية . .

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ . .﴾ .

إن الفلك التي تجري في البحر هي من صنع البشر في ظاهر الأمر . ولكنها ما كانت لتوجد لولا الخواص التي أودعها الله في الماء من ناحية ، وفي المواد التي تصنع منها الفلك من ناحية أخرى ، والتي تجعل الفلك محمولة على الماء لا تغوص فيه . ولذلك يمن الله على البشر في موضع آخر (في سورة يس) فيقول : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾[1] . . فالإنسان ـ وكل ما يعمل ـ هو من خلق الله من ناحية ، وكذلك فإن الخواص المودعة في المادة ، والتي تجعل في إمكان البشر أن يصنعوا الفلك التي تجري في البحر ، هي من خلق الله ، ولولا خلق الله لها ما استطاع الإنسان أن يصنعها .

والآية لا تشير فقط إلى جريان الفلك في البحر ، الذي ينفذ إلى النفس من منفذ الحركة ـ وهي من الأمور التي تلفت الحس البشري بشدة وتوقظه من غفلته ـ ولكنها تنفذ من منفذ آخر هو «المصلحة» ! فإنها تجري في البحر بما ينفع الناس . وهذا يذكرهم بفضل الله عليهم . فالأشياء التي تنفع الناس هي من خلق الله ، وحملها في الفلك حتى تصل إلى الناس هو كذلك من خلق الله . فهو فضل مزدوج يستحق من العباد أن يشكروا ربهم عليه ، لا أن يجحدوه ويعبدوا سواه .

ونقلة أخرى تنقلنا إلى مشهد آخر :

﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾

إنها إشارات متواكبة متوالية تقرع الحس بشدة لتلفته إلى ما كان غافلا عنه . .

فإنزال الماء من السماء آية ، وإحياء الأرض الميتة بهذا الماء آية ، وبث الدواب في الأرض بعد إحيائها بالماء آية . . وكلها آيات تنفذ إلى النفس من منافذ شتى في آن واحد . من منفذ الدقة المعجزة في الكون ، ومن منفذ الحركة المتدفقة ، بالإضافة إلى القدرة على الخلق ، فتتواكب الآيات لتهز الوجدان ، وتنفض عنه غفلته إن كان من الغافلين . .

---

(١) سورة يس : ٤١ ، ٤٢ .

وحين يتبلد الحس فإنه يرى المشاهد كلها يمر عليها في بلادة كأنها غير موجودة . . أما حين يعرضها النص القرآني على هذه الصورة، فهل يملك الحس أن يفلت من تأثيرها أو يتجاهلها، إلا أن يكون حسا مغلقا في قلب مريض؟!

فالمطر لا ينزل من تلقاء نفسه! إنما هو مخلوق من مخلوقات الله يخضع لأمره، ويسير حسب سننه، ولو شاء الله لجعله على صورة أخرى فلا يملك البشر أن ينتفعوا به :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾[١] .

وإحياء الأرض الميتة بالماء لا يحدث من تلقاء نفسه! فلولا خاصية أودعها الله في الماء، وخاصية أودعها في الأرض، ما أنبتت حين ينزل عليها الماء :

﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٢] .

ولا تقتصر قدرة الله على إحياء الأرض بالماء فحسب، وهي في ذاتها قدرة معجزة، ولكن الله القادر، الرزاق الوهاب، يبث في تلك الأرض بعد إحيائها ألوانا شتى من الدواب، تأتي لتأكل مما أنبتت الأرض، ويتضاعف بها الرزق للإنسان، فالماء رزق، والنبات رزق والدواب التي تأكل النبات رزق. كله من خلق الله، وكله فضل يتفضل الله به على العباد . . أفيحق للإنسان بعد ذلك أن يعبد من دون الله ما لا يخلق ولا يرزق ولا يضر ولا ينفع؟

وتستمر الآية تعرض معجزات القدرة ومعجزات الخلق . .

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾

إن الرياح آية من آيات الله . . إنها لا تتحرك من ذات نفسها! إنما الله هو الذي «يصرّفها» . . هو الذي يحدد لها وجهتها ومسارها . .

وقد عرفت الجاهلية المعاصرة «القوانين» التي تحكم حركة الرياح، ولكنها غفلت

---

(١) سورة الواقعة : ٦٨ ـ ٧٠ .　　(٢) سورة الحج : ٥ .

عن خالق الرياح، وخالق تلك «القوانين» التي تسيرها . . ومع ذلك فالرياح لا تسير دائما حسب ما يتخيلون من حركتها بحسب تلك القوانين، فهي تفاجئهم بين الحين والحين مفاجآت لا تعليل لها عندهم . . ولا تعليل لها في الحقيقة إلا مشيئة الله!

والسحاب كذلك من آيات الله . . سواء تعليقه بين السماء والأرض، أو «تسخيره» ليقوم بالمهام التي خلقها الله من أجله .

وفي آية واحدة من سورة واحدة يتم هذا الحشد الهائل من الإيقاعات التي يتلقاها القلب البشري فلا يملك ألا يتأثر بها، ولا يملك ـ في حالته السوية ـ ألا يستجيب .

وكلها مشاهد يراها الإنسان على الدوام معروضة أمامه، ولكنه في أحواله العادية قد لا يفكر فيها ولا يتدبرها، أو قد ينسبها في غفلته ـ كما تصنع الجاهلية المعاصرة ـ إلى «الطبيعة»! فلا تؤدي في حسه ما ينبغي أن تؤديه من إيقاظ الفطرة إلى حقائق الوجود، وبالذات إلى الحقيقة الكبرى في هذا الوجود: حقيقة الألوهية، وحقيقة القدرة المعجزة التي أوجدت هذا الكون كله، وأجرت فيه ما أجرت من أحداث وأمور .

ولكن السياق القرآني يزيل هذه الغفلة بأكثر من وسيلة .

فهو بادئ ذي بدء يرد الأمور كلها، ويرد الخلق كله، إلى مصدره الحقيقي، إلى الله الذي خلق كل شيء، ويدبر كل شيء . . إلى الله الذي لا إله غيره: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[1] .

ثم هو يبث الحركة في المشاهد التي يعرضها، فلا تصل إلى الحس ساكنة خامدة، كالمعلومات الذهنية التي تسكن في الذهن ولا تحرك الوجدان . إنما تصل في تتابع حيّ متحرك، يجعل الخيال يتابع حركتها واحدة إثر الأخرى، حتى ينتهي عرض الشريط بالكامل، والخيال هو الرسول إلى الوجدان، يحركه من مكمنه، فينفعل بالحدث أو المشهد، فيصبح الحدث أو المشهد جزءا من محتوى النفس، يؤثر فيها من داخلها، وليس شيئًا خارجا عنها تملك ألا تلتفت إليه أو تنصرف عنه!

---

(١) سورة البقرة ١٦٣ .

ثم يأتي الإعجاز البياني فيشارك في التأثير، حين يرسم بالألفاظ لوحة كاملة، حية متحركة، يتملاها الخيال وينفعل بها الوجدان، كأنما هي صور متحركة لا مجرد ألفاظ.

وتتواكب التأثيرات كلها لتؤدي الهدف المطلوب، وهو إيقاظ القلب الغافل ليتوجه إلى الله..

* * *

ولكن التأثير عرضة لأن يخفت بعد حين، وتبرد حرارته في الحس، نتيجة انشغال الإنسان في حياته الدنيا بأمور كثيرة تتعلق بحياته على الأرض، سواء كانت بحثا عن الرزق في مناكب الأرض، أو «استمتاعا» بشيء من متاع الحياة الدنيا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾(١).

ويحتاج الإنسان دائما إلى التذكير، وإعادة التذكير..

ولو ذكرناه بذات النص الذي أثار انفعاله من قبل، فلن يكون له في حسه في المرة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ما كان له في أول مرة، فمن طبيعة الإنسان إزاء الشيء المكرور أن يقل إحساسه به في كل مرة عن سابقتها، حتى يمر به يوما فلا يحس به، كأنه غير موجود!

والخالق العليم الخبير يعلم منه ذلك! ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٢).

لذلك يذكره ـ في كل مرة ـ بنص مختلف عن سابقه!

وتختلف النصوص بعضها عن بعض أنواعا مختلفة من الاختلاف. مرة في ترتيب المعروضات في النص فيحدث فيها تقديم وتأخير. ومرة بالتفصيل في بعض الجزئيات والإجمال في بعضها الآخر، ومرة في «الجو النفسي» الذي تعرض فيه ما بين جو الرضا وجو الغضب، وجو الترغيب وجو الترهيب، مما أشرنا إلى بعضه في الفصل السابق، ووعدنا بمزيد من الحديث عنه في هذا الفصل والذي يليه.

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

(٢) سورة الملك. ١٤.

وخذ مثلا النص الذي ذكرناه آنفا، وراجع «المعلومات» الواردة فيه: إنها خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر، والماء النازل من السماء ليحيي الأرض، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض.

وانظر في كل واحدة من هذه «المعلومات» كيف ترد في نصوص أخرى..

خذ خلق السموات والأرض (ومعها في أحيان كثيرة اختلاف الليل والنهار):

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[3].

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[4].

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[5].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠، ١٩١.
(٢) سورة هود: ٧.
(٣) سورة إبراهيم ١٩، ٢٠.
(٤) سورة الجاثية ٢٢.
(٥) سورة الروم ٨.
(٦) سورة السجدة: ٤-٦.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⦗١١⦘ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(1).

* * *

كل نص من هؤلاء ـ والنصوص غيرها كثير ـ يذكر السموات والأرض في معرض مختلف عن الآخر.

ففي النص الأول (من سورة آل عمران) يصف أولى الألباب بأنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض، فينتهي بهم التفكر إلى أن الحياة الدنيا ليست هي نهاية المطاف، وأن هناك بعثا ونشورا، وجنة ونارًا، فيتوجهون إلى الله أن يقيهم عذاب النار.

وفي النص الثاني (من سورة هود) يذكر الهدف من خلق السموات والأرض ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وفي النص الثالث (من سورة إبراهيم) يذكر خلق السموات والأرض في جو التهديد للكافرين بأن الذي في قدرته أن يخلق تلك السموات والأرض قادر على أن يذهبهم ويأتي بخلق جديد.

وفي النص الرابع (من سورة الجاثية) يذكر خلق السموات والأرض بالحق، ويترتب عليه جزاء كل نفس بما كسبت دون ظلم يقع على أحد.

وفي النص الخامس (من سورة الروم) يذكر إلى جانب خلق السموات والأرض بالحق أنها موجودة إلى أجل مسمى، هو يوم القيامة، ويذكر إلى جانب ذلك أن كثيرا من الناس يكفرون بلقاء الله في ذلك الأجل المسمى.

وفي النص السادس (من سورة السجدة) يُذْكَر إلى جانب خلق السموات والأرض، الدال على تفرد الله بالخلق، وقدرته التي لاتحد، نفي الشفاعة عن الآلهة المزعومة التي لا حول لها ولا طول. ثم يذكر أمرًا آخر: أن الأمر يتنزل من السماء

---

(1) سورة فصلت: ١١، ١٢.

إلى الأرض ثم يعرج إلى الله مرة أخرى فيما يوازي ألف سنة مما يعد البشر، مما يدل على سعة الكون، وقدرة الله المعجزة التي تخلق كونا واسعا بهذا القدر.

وفي النص السابع (من سوة فصلت) معلومات جديدة عن خلق السموات والأرض، أنهما مسخرتان بأمر الله لا تحيدان عن أمره، وأن السماء كانت في منشإ أمرها دخانا. وأن الله خلق من هذا الدخان سبع سموات، ثم أوحى في كل سماء ما هي مخلوقة من أجله، وأمرها الذي قدر لها أن تسير عليه. وأنه زين السماء الدنيا بمصابيح - هي الشمس والقمر والنجوم - وأن بعض ما تشتمل عليه - وهو الشهب - من مهامه حفظ السماء من محاولات الشياطين استراق السمع والاطلاع على الغيب. .

وهكذا يتجدد العرض في كل مرة، ويكون لخلق السموات والأرض في كل مرة شأن غير شأنها السابق في النص الآخر، فيتجدد المشهد، ويتجدد التأثير، وينتفي التكرار الذي يؤدي إلى تبلد الحس على المشهد المكرور!

وخذ الجزئية الخاصة باختلاف الليل والنهار. . إنها ليست صورة واحدة ولكنها صور شتى:

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ. .﴾(١).

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا. .﴾(٢).

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾(٣).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤).

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾(٥).

---

(١) سورة آل عمران: ٢٧.
(٢) سورة الأعراف: ٥٤.
(٣) سورة يس: ٣٧.
(٤) سورة القصص. ٧١-٧٣.
(٥) سورة الإسراء: ١٢

فأنت مع الليل والنهار في جميع هذه الآيات ـ وكثير أمثالها ـ ولكنك في كل مرة في معرض غير الآخر وفي مشهد غير الآخر. ففي الآية الأولى أنت مع عملية متدرجة يدخل فيها الليل في النهار رويدا رويدا، ويدخل النهار في الليل كذلك بالتدريج. ولكنك في الآية الثانية مع مشهد مختلف فالليل يغشي النهار ولكن في حركة تشبه السباق أو الملاحقة؛ فالليل يلاحق النهار ليدركه أو يسبقه، ولكنه يظل في طلبه في حركة دائبة لا تنتهي، وهذا يمثل دوران الليل والنهار علي سطح الكرة الأرضية. بينما كان المشهد في الآية الأولى يمثل بقعة واحدة منها، في اللحظات التي يتداخل فيها الليل والنهار ثم تنتهي بدخول أحدهما في الآخر واختفاء الأول من المشهد. وفي الآية الثالثة مشهد مختلف تماما عن المشاهد الأخرى كلها التي يرد فيها ذكر الليل والنهار، يناسب جو الغضب الذي ينصبّ في السورة على الكافرين المعاندين، وهو مشهد «سلخ» النهار من الليل، فإذا النور يختفي فجأة والليل يسوده الظلام[1]. أما الآية الرابعة فهي تُخَيِّل مشهدا غير موجود في الحقيقة وهو النهار السرمدي الذي لا يتلوه ليل، والليل السرمدي الذي لا يتلوه نهار، والذي يُعْرَض لبيان فضل الله ورحمته بالناس، الذي جعل الليل والنهار خلفة، يخلف أحدهما الآخر، فيتيح للناس فترة للعمل والنشاط، وفترة للسكون والراحة. ولولا ذلك لتحوّلت الحياة إلى عذاب دائم، سواء في الليل السرمدي الذي لا ضياء فيه، أو النهار السرمدي الذي لا سكن فيه. وأما الآية الخامسة فتعرض مشهدا مختلفا فالليل والنهار آيتان، ولكن آية الليل محيت! وهذا تصوير لكون الليل مظلما، ولكن التعبير يصور كأنما الليل ليس مظلما من ذات نفسه، إنما هو صار هكذا لأن الله الخالق «محاه»، بينما جعل الله النهار مبصرا.. جَعَلَه.. فهو ليس منيرا من ذات نفسه، ولكن بجَعْلِ الله له على هذه الصورة. وفي ذلك تذكير بأن الأشياء كلها تأخذ وضعها الذي هِي عليه بتقدير الله وتدبيره، وليس من ذات نفسها كما يبدو للإنسان حين يغفل عن الحقيقة الكبرى، وهي أن الله خالق كل شيء، ومعطي كل شيء هيئته التي هي عليه، لا بحتمية مادية، ولا بحتمية تاريخية كما يزعم التفسير المادي، وأن الهيئة التي عليها كل شيء ليست هي الصورة الوحيدة

---

(١) راجع ما قلناه عن هذا المشهد في الفصل السابق.

التي كان يمكن ـ نظريا ـ أن تكون عليها، إنما هي الهيئة التي اختارها الله لها بحكمته ومشيئته وعلمه: ﴿. . رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١).

أما الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، فهي كذلك ترد في مناسبات شتى، ولأهداف مختلفة:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾(٢).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾(٣).

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾(٤).

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٥).

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾(٦).

فأنت في تلك النصوص كلها ـ وغيرها كثير ـ مع الفلك. ولكنك معها في كل مرة في مشهد مختلف، له في كل مرة تأثير في النفس مختلف. فأنت في الآية الأولى مع حقيقة من حقائق الألوهية وحقائق الوجود، وهي تسخير الله للفلك لتجري في البحر بأمره. وهي من الحقائق الكثيرة التي يغفل الحس عنها حين يغفل عن الدلالات الكامنه في كل شيء في الوجود. فلولا «التسخير» من عند الله ما جرت الفلك في البحر مهما حاول البشر. فهم لا ينشئون شيئا من عند أنفسهم، لا المادة التي تصنع منها الفلك، ولا «القوانين» (أو فلنقل السنن الربانية) التي تجعلها

(١) سورة طه ٥٠.
(٢) سورة إبراهيم: ٣٢.
(٣) سورة الشورى: ٣٢ـ٣٤.
(٤) سورة يونس: ٢٢، ٢٣.
(٥) سورة النحل. ١٤.
(٦) سورة الزخرف: ١٢-١٤.

تجري في البحر. ثم إنها في كل مرة تجرى «بأمر الله» ولو لم يصدر الله لها الأمر ما جرت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

وأنت في الآية الثانية مع سنة أخرى من سنن الله في الكون، وهي إجراء الريح التي تدفع الفلك في البحر فتجري، وكان يمكن أن يجعل الله الريح ساكنة فلا تجري الفلك. والإشارة بالطبع هي إلى الفلك الشراعية التي كانت تعتمد على الريح. ولقد يظن الإنسان في الجاهلية المعاصرة أنه قد تغلب على أمر الله، واستغنى عن الريح فلم يعد يعتمد عليها في تسيير السفن العملاقة التي تمخر العباب! ومثل هذا الإنسان - في جاهليته - يَغْفُلُ عن أن تلك السفن تمخر العباب بسنة من سنن الله، علمها الله للإنسان، ولولا أن الله علمها للإنسان، وسخر له الطاقة التي يعمل بها ما تم له شيء مما قام بعمله. ومع ذلك، فالآية الثانية تدركه وهو في أوج انتفاخه وغروره وقوله كما قال قارون من قبل: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[2]. فتقول له إن الله قادر - إذا شاء - أن يهلك تلك السفن عقابا لأهلها.. وكم من سفينة جبارة ظن أهلها أنهم قادرون عليها، فأوبقها الله بقدرته. ليفيء الإنسان من غروره، ويعلم أنه يعمل كل شيء بتسخير من الله، لا بعلمه الذاتي، ولا بقدرة ذاتية غير مستمدة من عند الله.

وأنت في الآية الثالثة مع حالة من الحالات التي تعرض للإنسان في مجرى حياته حين يكون بعيداً عن الهدي الرباني. فهو في ساعة الشدة وساعة الخطر يلجأ إلى الله، وينكشف الغطاء، ويوقن الإنسان ألا ملجأ من الله إلاّ إليه، فيتوجه إليه بالضراعة، واعداً أنه إذا أنجاه الله من الكرب فسيكون من الشاكرين! فإذا قدر الله له النجاة فسرعان ما ينسى الخطر والشدة ويقول في غفلته: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾![3]. فينسى وعده أو يتناساه، ويلجّ فيما كان غارقًا فيه من الغواية: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[4]..

وأنت في الآية الرابعة في معرض أنعُم الله على الإنسان، التي ينساها الإنسان في غفلته، ويذكّره القرآن بها ليشكر الله على نعمه. ويأتي من بين هذه النعم

---

(١) سورة القمر .٤٩.
(٢) سورة القصص ٧٨
(٣) سورة هود: ١٠
(٤) سورة هود ١٠٠.

جريان الفلك في البحر، وابتغاء الناس من فضله عن هذا الطريق. إشارة إلى ما تقوم به السفن من حمل الأرزاق من مكان إلى مكان.

وفي الآية الخامسة توجيه في الاتجاه نفسه ـ وهو وجوب شكر الله على نعمه وأفضاله ـ ولكنه يأخذ صورة مختلفة، فهو يصور استواء الناس على ما سخر الله لهم من أدوات الركوب، سواء كانت من الأنعام التي سخرها الله للسفر في البر، أو من الفلك التي سخرها للسفر في البحر، مع تلقينهم صورة معينة لشكر الله على هذه النعمة بالذات، وهي أن يقولوا حين يستوون على ظهر الدابة أو على ظهر الفلك: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. وبذلك يشكرون الله على النعمة، ويذكّرون أنفسهم أنهم حيثما ذهبوا فهم في ملك الله، وفي سلطان الله، وأنهم في النهاية راجعون إلى الله.

وهي كما ترى أجواء مختلفة، وحالات مختلفة، يتم من خلالها توجيه القلب البشري إلى الله.

وأما الماء النازل من السماء، فله كذلك مجالاته المختلفة، وتوجيهاته المختلفة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[2].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[3].

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا

(١) سورة الأنعام ٩٩   (٢) سورة الحجر: ٢٢.
(٣) سورة الزمر ٢١.   (٤) سورة النحل: ١٠، ١١

من قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] .

ففي الآية الأولى، يذكر ظاهرة الإنبات التي تنشأ عن نزول الماء من السماء، ولكن السياق يحوي في داخله إشارات مختلفة، كلها يخدم الهدف الأخير من إيراد هذه الآيات كلها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي أنها دعوة للإيمان الصحيح، الإيمان بالله وحده بلا شريك. وقد أشرنا إلى هذه الآية بالذات في الفصل السابق، في معرض الحديث عن التنويع، وذكرنا كيف يدل السياق على التنويع باللفظ المباشر، ثم بتنويع الأسلوب ذاته، ليعطي جو التنويع بالإيحاء، بالإضافة إلى الذكر الصريح. . ويلفت النظر هنا أن السياق لم يدخل إلى الوجدان من باب «المصلحة» أي من باب «الفوائد» التي يجنيها الإنسان من نزول المطر، ولكن من باب «الجمال». . ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾[2] ! فقد خلق الله الكون جميلا، وخلق في الإنسان حاسة تتذوق الجمال وتعجب به ومن خلال هذه الحاسة يوقظ الوجدان، ليتعرف على قدرة الله وعظمته، ليتوجه له بالعبادة. فللجمال في الكون، وللإحساس به عند البشر هدف مقصود: أن يتعرف الناس على ربهم تعرفا شاملا يشمل كل الجوانب، ولا يغادر جانبا لا يلم به. فانظر إلى الإنسان المؤمن كيف يكون الجمال في الكون دعوة له لعبادة الله، والإنسان الجاهلي يتخذ الجمال فتنة فيعبده من دون الله! أو ينحرف به عن العبادة الحقة لله!

وفي الآية الثانية يشير إلى ثلاثة أمور كونية في آن واحد: الأمر الأول هو الرياح «اللواقح» التي تكثف السحاب وتدفعه فينزل منه الماء. والأمر الثاني هو سقيا البشر من هذا الماء، وهو أمر تتوقف حياتهم عليه. والأمر الثالث هو عجز البشر عن اختزان هذا الماء. ولقد يبدو لإنسان الجاهلية المعاصرة أن هذا الأمر الأخير لم يعد واردا بعد تمكن الإنسان من إنشاء الخزانات الضخمة التي تختزن الماء! وأن الإنسان قد توصل بعلمه وقدرته إلى أن يشارك الله في قدرته! وحقيقة، إن الله قد علّم الإنسان ومكّنه من تخزين بعض ما يجريه الله من المطر في صورة أنهار. ولكن الجزء الأكبر من الأمطار التي تنزل على الأرض إما ذاهب إلى البحار والمحيطات،

---

(١) سورة الروم: ٤٨ـ٥٠. (٢) سورة الأنعام. ٩٩.

وإما متبخر بفعل حرارة الشمس ، و إما متسرب إلى باطن الأرض ، وكله ينطبق عليه النص : ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[1] !

وفي الآية الثالثة أشار إلى الماء الذي يتسرب إلى باطن الأرض ثم يخرج على هيئة ينابيع ، تسقى الأرض فيخرج منها زرع مختلف ألوانه . . وذلك في معرض تذكير الناس بمآل المتاع الأرضي ، ﴿ثم يصير حطاماً﴾ لكي لا تفتنهم الحياة الدنيا ومتاعها الزائل ، عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء ، ونعيم خالد أو شقاء .

وفي النص الرابع يشير إلى السقيا وإنبات الزرع ، وإلى معجزة الخلق ، التي تخلق الأنواع كلها التي تسقى بماء واحد ، فتخرج مختلفة الأشكال والألوان والطعم والمذاق .

وفي النص الخامس يذكّر برحمة الله التي تنزل الغيث على الناس بعد ما يكونون قد قنطوا من انقطاع المطر وأصابتهم الشدة من الجفاف ، وذلك في معرض تذكيرهم بأن الذي يحيى الأرض بعد موتها قادر على أن يحيى الموتى ، وهو ما كان المشركون يستبعدونه تماما ويرونه مستحيلا . . فيقربه إليهم بقياسه إلى ما يرونه أمامهم من آيات القدرة الربانية ، وأنه لا فرق ـ من حيث القدرة ـ بين إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى ، فالذي يقدر على هذه يقدر على تلك .

وفي الآيات كلها أنت مع الماء النازل من السماء ، ولكنك في كل مرة مع مشهد مختلف ، وتوجيه مختلف !

يأتي في آية البقرة (١٦٤) بعد ذلك تصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض . ونكتفي بشأن الرياح بالنماذج السابقة التي ورد فيها ذكر الرياح اللواقح ، والريح الطيبة ، والريح العاصفة ، والريح الساكنة ، وإن كانت النماذج في كتاب الله كثيرة . وننتقل الآن إلى السحاب المسخر بين السماء والأرض :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[2] .

(١) سورة الحجر : ٢٢.   (٢) سورة النور ٤٣ .

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾(١).

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾(٢).

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾(٣).

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٤).

في الآية الأولى يصف الله سبحانه وتعالى كيفية تكوّن السحاب التراكمي بمراحله المختلفة، وذلك في وقت لم يكن أحد قد صعد إلى الأجواء العليا ولا علم شيئًا عن تراكم السحاب. وذلك أمر سنشير إليه مرة أخرى في حديثنا عن الإعجاز العلمي.

وفي النص الثاني يجيء ذكر السحاب مع ما يصحبه من رعد وبرق وصواعق، في معرض القدرة الإلهية من ناحية، وجدال الكفار حول الألوهية من جهة أخرى، لبيان تهافت هذا الجدل وقيامه على غير أساس.

وفي الآية الثالثة يجيء ذكر السحاب جزءا من لوحة الظلام المطبق التي تحدثنا عنها في الفصل الماضي، في المواجهة الرائعة بين أنور نور وأظلم ظلام.

وفي الآيتين الرابعة والخامسة إشارة إلى إرسال الله للرياح فتثير السحاب الذي يصرّفه الله كيف يشاء. ولكنا نلاحظ التنويع بين قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا..﴾ وقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي

---

(١) سورة الرعد ١٢، ١٣.
(٢) سورة النور: ٤٠.
(٣) سورة الروم. ٤٨.
(٤) سورة فاطر: ٩.

أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا . . ﴾ . والاختلاف مقصود للتنويع كما أشرنا في الفصل السابق . ولكن الآية الأخيرة فيها إضافة أحدثها تغيّر زمن الفعل (مضارع في الأولى وماض في الثانية) . فقوله تعالى : ﴿ . . . أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ تفيد أن من شأن إرسال الرياح أن تثير سحابا . كأنما أوكل الله إلى الرياح أن تقوم بهذا الأمر ، تكليفا منه سبحانه وتعالى . فحين يرسل الله الرياح تقوم هي بما كلفها الله به ، فتثير السحاب ! وهذا وذاك من أمر الله وتدبيره ، ولكن التنويع يضيف إلى المشاهد غنى ، ويجدد تأثيرها في النفس وإن تشابهت الألفاظ . .

* * *

ولقد كنا حتى هذه اللحظة في مناسبة نص واحد من النصوص القرآنية التي تعرض آيات الله في الكون ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] . وتطرق بنا الحديث عن هذا النص الواحد إلى النماذج المتعددة التي تتحدث عن المفردات الواردة في هذا النص الحاشد . ولكن هذا النص ليس هو الوحيد في كتاب الله في شموله لآيات عدة من آيات القدرة الربانية . . ولو ذهبنا نتتبع كل النماذج لتشعب بنا الحديث أكثر . إنما أردنا فقط بإيراد هذا النص أن نفتح الباب للتأمل في تنوع المشاهد وتعددها حتى وإن بدت لأول وهلة مكررة ، وتعدد الأجواء التي تعرض فيها المشاهد ، وكيف أنها تعطي في كل مرة تأثيرا مختلفا في النفس ، وإيقاعا مختلفا على أوتار القلب ، فيظل القلب في تلقٍّ دائم لتلك الإيقاعات التي تجيئه من كل صوب ، وتدخل إليه من كل مدخل ، فلا يملك أن يتجاهلها أو ينصرف عن دلالتها . .

* * *

(١) سورة البقرة : ١٦٤ .

ولكن مداخل النفس كثيرة كما أسلفنا . وكل الأمثلة التي أشرنا إليها حتى الآن هي في مجال آيات الله في الكون ، سواء من جهة الضخامة المعجزة في هذا الكون ، أو الدقة المعجزة فيه . ولكن القدرة الربانية لها مجالات متعددة ، وليست مجالا واحدًا . وكلها مؤثر . وكلها موقظ للفطرة ، لا يدع لها مجالا لأن تغفل عن الحقيقة العظمى في هذا الوجود ، وهي حقيقة الألوهية .

وقد أشرنا من قبل إلى ظاهرة الموت والحياة ، وقلنا إنها من أشد ما يوقظ الفطرة إلى حقيقة الألوهية ، بعد الإعجاز البادي في الكون المادي سواء بضخامته أو دقته التي تروع الحس البشري .

ونجد في المقابل ـ في كتاب الله ـ عناية واضحة بإبراز هذه الظاهرة ، والدخول بها إلى أعماق القلب الإنساني لتهزه من أعماقه ، وتوقظه من سباته .

فالله سبحانه وتعالى ـ بادئ ذي بدء ـ يصف نفسه بأنه «الحي» « الحي القيوم» «الحي الذي لا يموت» . .

ثم يصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه هو المحيي المميت . وتتعدد مشاهد الإحياء والإماتة فتشمل البشر ، والكائنات الحية الأخرى من الدواب والنبات ، كما تشمل الأرض التي تكون ميتة فيحييها الله بالماء النازل من السماء ، ويبث فيها ألوانا مختلفة من الحياة ، من دواب وزروع وأشجار .

ثم تركز النصوص القرآنية كثيرا على خاصية الإحياء ـ التي هي خاصية إلهية ـ لتثبت قدرة الله على إحياء البشر يوم القيامة بعد أن يكونوا قد أصبحوا عظاما ورفاتا . وتأخذ هذه القضية حيزا واسعًا في النصوص القرآنية في مقابل الإنكار الشديد الذي كان العرب المشركون يواجهون به قضية البعث والنشور والحساب والجزاء حتى قالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ ! ! »[1] .

ويجيء التركيز على ظاهرة الإحياء والإماتة تارة بتعبير مباشر ، وتارة في مشهد من مشاهد الحياة الدنيا ، وتارة في مشهد من مشاهد القيامة ، وفي جميع الأحوال نلحظ التنويع الواضح في النصوص ، كما نلحظ الإحاطة بالقلب البشري من

---

(١) سورة سبأ · (٧ ، ٨) .

جميع منافذه في هذه القضية كما في غيرها من القضايا، بحيث لا يملك أن يفلت من التأثر إلا أن يكون الران قد علاه كالصدإ، فلم يعد يستجيب.

ونأخذ الآن في ذكر بعض الأمثلة لما قلناه، وهي غيض من فيض..

﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(١).

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(٢).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾(٣).

هذا في باب تعريف الناس بربهم.. أنه هو الحي بذاته سبحانه وتعالى. الحي الذي لا يستمد الحياة من غيره، لأنه هو الحي القيوم. الحي الذي لا يدركه الفناء ولا الموت:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(٤).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾(٥).

ولا يحتاج الحس البشري إلى جهد ليدرك معنى هذه الخاصية من خواص الله سبحانه وتعالى. فهو يدرك بالممارسة الواقعية أن الكائنات كلها تموت، فإذا كان هناك من هو حي دائم الحياة، لا يموت أبدا، فهو الإله الذي ليس كمثله شيء، وهو الذي تتعين عبادته وحده بلا شريك، لأنه هو المتفرد بالحياة والدوام، كتفرده بالقدرة وبالتدبير.

ثم يفيض القرآن في الحديث عن الخاصية الأخرى التي يتفرد بها الله كذلك، وهي خاصية الإحياء والإماتة:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾(٦).

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا..﴾(٧).

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾(٨).

---

(١) سورة غافر ٦٥ — (٢) سورة البقرة: ٢٥٥.
(٣) سورة الفرقان: ٥٨. — (٤) سورة القصص. ٨٨.
(٥) سورة الرحمن ٢٦، ٢٧. — (٦) سورة يونس: ٣١، الروم. ١٩.
(٧) سورة يس. ٣٣ — (٨) سورة ق. ٤٣.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾(٢).

وهذا إخبار مباشر بأن الله يحيي ويميت، وأنه ـ وحده ـ هو الذي يحيي ويميت.

ولكن الإخبار يأتي أحيانا في مشاهد معروضة لا في تعبير مباشر:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٤).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(٥).

وفي هذا المثال الأخير يفصل الله أطوار الجنين، مما سنعود إليه في الحديث عن الإعجاز العلمي. ولكننا نشير هنا إلى أن هذه الأطوار يعبّر عنها في آيات أخرى

---

(١) سورة غافر: ٦٨.

(٢) سورة الحديد: ٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٩، ٢٦٠.

(٤) سورة البقرة. ٧٢، ٧٣.

(٥) سورة المؤمنون: ١٢-١٦.

بأنها موت ثم حياة، في مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

كما يجيء ذكر الإحياء والإماتة في معرض التعبير عن قصر الحياة الدنيا وسرعة انقضائها في مثل هذا المشهد المؤثر: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

وفي جميع الحالات، سواء كان التعبير مباشراً أو من خلال مشهد من المشاهد، فإن قضية الموت والحياة تأخذ حيزاً كبيراً في كتاب الله، لأن الله يعلم أنها قضية ذات شأن عميق في الحس البشري، وأنها من موقظات الفطرة، التي توقظها لتتعرف على الله وتتوجه إليه.

ولكن القضية تستخدم في كتاب الله لهدف آخر، بالإضافة إلى التأثير الوجداني الذي تحدثه في النفس، وتربط به القلب البشري بالله. إنها تستخدم على نطاق واسع للتدليل على قدرة الله على بعث الموتى، ليحاسبوا على ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا من خير أو شر. وكانت هذه القضية كما أسلفنا من أشد ما وقف بين المشركين وبين الإيمان بما أنزل إليهم من عند الله، وحُسبانه من الأساطير، أو من السحر، أو من الكذب الصراح!

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3].

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (15) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[4].

﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: ٢٨ (٢) سورة يونس: ٢٤.

(٣) سورة المؤمنون: ٣٥-٣٨. (٤) سورة الصافات: ١٥، ١٦

(٥) سورة مريم: ٦٦

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(١)

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾(٢).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٣).

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾(٤).

وكان رد القرآن عليهم غاية في البساطة، وغاية في الوضوح، وغاية في استقامة المنطق، لولا أن الأمر في حسهم كان أعجب من أن يصدقوه، واحتاج إلى التذكير المستمر، والمناقشة المستمرة، حتى استقر في العقول والقلوب، وصار في النهاية يقينا لا يقل في قوته ووثاقته عن اليقين بوجود الله.

كان الرد القرآني الواضح البسيط: أن الذي خلق أول مرة لا يعجز عن إعادة الخلق، بل هو أهون عليه!

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٥).

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾(٦).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٧).

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٨).

---

(١) سورة النمل ٦٧، ٦٨.
(٢) سورة الإسراء. ٤٩.
(٣) سورة يس. ٧٨.
(٤) سورة السجدة ١٠.
(٥) سورة الروم. ٢٧.
(٦) سورة يس: ٨١.
(٧) سورة يس: ٧٨، ٧٩.
(٨) سورة الإسراء. ٥٠، ٥١

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

هكذا كانت القضية في غاية الوضوح. ولكنها ـ مع وضوحها ـ احتاجت إلى مجاهدة طويلة حتى استقرت. ذلك لأن حقيقة الخلق الأول ـ وهي الركيزة الرئيسة في النقاش حول قضية البعث ـ لم تكن تحتل في نفوس المشركين مساحتها الحقيقية التي ينبغي أن تأخذها. إنها أمر واقع، نعم! وهم لاينكرونها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2]. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3]. ولكنها حقيقة ميتة باردة في حسهم، لا نبض فيها ولا إشعاع، لأن نفوسهم قد أكلها الصدأ، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فلم تعد الأصداء الحقيقية لحقائق الوجود تصل إليهم، سواء من ناحية تفرد الله بالألوهية وما يقتضيه ذلك من إفراد الله بالعبادة، فلا يُعبد غيره، أو من ناحية الإيمان بالبعث حين يخبرهم به الوحي المنزل، ويدلل لهم عليه بأن الذي خلق أول مرة قادر على إعادة الخلق.. ولو كانت قضية الخلق من العدم ـ التي ذكّرهم بها مرات ومرات ـ تأخذ في حسهم مساحتها الحقيقية، ما احتاجوا إلى كل ما احتاجوا إليه من نقاش حول قضية البعث، مهما كانت غرابتها عليهم في الوهلة الأولى. فإن خلق أبسط الكائنات، فضلا عن الإنسان، فضلا عن السموات والأرض هو أمر معجز لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى. فإذا أقروا أن الله هو الخالق ـ كما كانوا يقرون بالفعل ـ فما وجه الإنكار بالنسبة للنشأة الثانية؟!

إنها الجاهلية! ولا شيء غير الجاهلية!

واعجب إن شئت للجاهلية المعاصرة ـ التي تُدلّ على التاريخ كله بما أحرزته من «العلم» ـ تنكر وجود الله أصلا، وتنكر البعثَ كذلك، وتنكر كل ما لا تدركه الحواس.. لا لأسباب «علمية» ولكن لسبب وجداني بحت، هو الهروب من إله الكنيسة الذي كانت الكنيسة تستعبد الناس باسمه، وتضيق عليهم، وتضطهدهم، وتطاردهم في يقظتهم ومنامهم، وتفرض عليهم كل أنواع الطغيان: الروحي والمالي والسياسي والعقلي والعلمي.. فهربوا منه إلى إله لا كنيسة له ولا رجال دين، ولا دخل له بأعمال الناس في الأرض، يهيمون على وجوههم كالأنعام

---

(1) سورة ق. ١٥. (2) سورة لقمان ٢٥.

(3) سورة الزخرف: ٨٧

دون أن يحاسبهم على أعمالهم، وسموه «الطبيعة» ونسبوا إليه الخلق والتدبير، وإن كانوا نفوا عنه «الحكمة» فقال عنه دارون : «الطبيعة تخبط خبط عشواء!
"Nature works haphazardly!"

والجاهلية العربية لم تكن تنكر وجود الله، ولا أنه هو الخالق، ولا أنه هو مدبر الأمر، ولكنها ـ في جهالتها ـ كانت تشرك به آلهة أخرى. أما البعث فموقفها منه لا يختلف كثيرا عن موقف الجاهلية المعاصرة. فهو في جانب منه ناشئ من عدم الرغبة في أن يكون هناك رقيب يحاسبهم على أعمالهم، وينذرهم بالعقاب الأليم على ما يقترفون من تصرفات خاطئة في الحياة الدنيا، سواء كانت مظالم يمارسونها، أو شهوات يغرقون في حمأتها ولا يحبون أن يقلعوا عنها. ومن ثم «يهربون» من الموقف بنفي البعث أصلا، ونفي قدرة الله عليه، حتى يستريحوا من ذلك الخاطر المزعج، خاطر الحساب على ما يقترفون من أعمال، وينطلقوا مع شهواتهم بلا ضابط!

ومن قبل، قال قوم شعيب حين طالبهم نبيهم بالاستقامة في البيع والشراء، وعدم إيقاع الظلم على الناس: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(١).

فاستهجنوا منه أن يطالبهم بشيء يضبط تصرفاتهم، ويجعل لها معياراً غير أهوائهم وشهواتهم، ورفضوا الدين كله الذي جاء به شعيب عليه السلام من أجل ذلك.

كذلك استهجن مشركو العرب دعوى البعث والنشور، والحساب والجزاء، كراهية لأن يحاسبوا، لا اعتماداً على «منطق» حقيقي يبرر إنكارهم.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾(٣).

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة هود : ٨٧.
(٢) سورة الروم : ٢٩
(٣) سورة غافر : ٥٦
(٤) سورة الشعراء . ١٣٦-١٣٨

والسبب الأول في ذلك بطبيعة الحال هو انطماس البصيرة، والغفلة التي تعطل حواس الهداية:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[2].

نعم.. ولكن القرآن ـ المعجز ـ ظل يعالج هذه القلوب المنكرة النافرة، حتى آمنت بالله، وآمنت بالبعث والنشور، وتعمق الإيمان فيها حتى صنع ما يشبه المعجزات!

* * *

جريان الأحداث، سواء في الكون المادي أو في حياة البشر، من الأمور التي تروع الحس البشري كما أشرنا آنفا، فيروح يبحث عن المحرك الذي يحرك الأحداث، كما يروح يتساءل عن دلالاتها: هل وراءها تدبير منظم. أم تحدث فوضى بلا نظام؟ وهل وراءها حكمة أم تحدث بلا حكمة ولا هدف؟!

والقرآن ـ المنزل من لدن خالق الفطرة، ومودع ما أودع فيها من نوازع واتجاهات ومنسربات عميقة ـ يلتقي مع الفطرة، فيحدّثها حديثا مستفيضا عن حركة الأشياء وحركة الأحداث:

ولنعد إلى المثال الذي ذكرناه من قبل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

إن المثال الواحد قد تكون له دلالات مختلفة؛ وإيقاعات مختلفة. فقد أوردنا

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٩.
(٢) سورة المؤمنون ٧٣، ٧٤.
(٣) سورة البقرة: ١٦٤

هذا المثال من قبل لبيان طريقة القرآن في إحياء مشاهد الكون التي قد يتبلد عليها الحس بسبب الألفة الطويلة، فيعيدها القرآن جديدة، تصدر إشعاعها وإيقاعها، فيلتقطه القلب الغافل فيستيقظ من غفلته. والآن نعرضه في مجال الحركة المؤثرة التي تحرك الوجدان ليتتبعها . .

ولكن المجال الذي نحن بصدده لا ينحصر في ذلك المثال، فمثله في القرآن كثير :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾(١) .

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٢) .

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(٣) .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾(٤) .

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٥) .

وخذ نماذج من حركة الأحداث في عالم البشر :

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٦) .

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٢ـ ٣٤.
(٢) سورة يس ٣٨ـ ٤٠ .
(٣) سورة الزمر ٥
(٤) سورة الفرقان ٤٥ ، ٤٦
(٥) سورة النحل : ٦٨ ، ٦٩ .
(٦) سورة آل عمران . ٢٦ .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾(١) .

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢) .

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣) .

﴿.. فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٤) .

أما السؤال الذي يرد على الفطرة بشأن ما يحدث من أحداث في الكون المادي وفي حياة الإنسان ، فيجيب القرآن عليه إجابة مفصلة . وسنعود إلى هذه الإجابة بتفصيل أكبر عند الحديث عن الإعجاز التربوي . ولكنا هنا نوردها لبيان أبعاد هذا الأمر في مجال الدعوة إلى العقيدة الصحيحة .

---

(١) سورة الروم : ٥٤.
(٢) سورة الأنعام : ٤٤.
(٣) سورة القصص : ٧٦ ـ ٨٣.
(٤) سورة العنكبوت . ٤٠.

إن القرآن يقول للناس ابتداء إن كل شيء يتم بقدر يقدره الله :

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(١) .

وإن الله إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون :

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) .

ثم إنه لا مشيئة لأحد مع مشيئة الله :

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾(٣) .

وإنه لا شيء يقف في وجه المشيئة الربانية فيمنع وقوعها :

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾(٤) .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾(٥) .

وإن لله ـ مع طلاقة مشيئته ـ سننا يُجرى بها الأحداث في الكون المادي وفي حياة البشر ، ثبتها الله سبحانه بعلمه وحكمته ، وجعلها غير قابلة للتبديل ولا التحويل .

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾(٦) .

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾(٧) .

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٨) .

وإن من بين سننه في حياة البشر أنه يعطي الدنيا للمؤمن والكافر على السواء إذا اجتهدا في تحصيلها :

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾(٩) .

---

(١) سورة القمر . ٤٩ .

(٢) سورة النحل . ٤٠ .

(٣) سورة الإنسان ٣٠ .

(٤) سورة الطلاق . ٣ .

(٥) سورة فاطر ٤٤ .

(٦) سورة فاطر ٤٣

(٧) سورة الفتح ٢٣ .

(٨) سورة آل عمران ١٣٧ .

(٩) سورة الإسراء: ٢٠ .

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾(١) .

ولكن تفترق سنته ـ بعد ذلك ـ ما بين المؤمن والكافر . فقد يعطي الكافر على كفره ، بل يمد له في العطاء إلى حين :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) .

أما المؤمنون فلا يعطيهم إلا إذا وفوا بالشرط :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(٣) .

وأن من سنته مداولة الأيام بين الناس

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(٤) .

ومن سنته التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل لحفظ الأرض من الفساد :

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٥) .

ثم إن الأحداث تجرى في الكون المادي وفي حياة البشر لهدف وحكمة ، فلا هي تجري اعتباطا ، ولا هي عبث لا غاية له :

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٦) .

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٧) .

---

(١) سورة هود · ١٥ (٢) سورة الأنعام . ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) سورة النور · ٥٥ . (٤) سورة آل عمران ١٤٠
(٥) سورة البقرة : ٢٥١ (٦) سورة الكهف : ٧
(٧) سورة الأنبياء ٣٥.

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾(١) .

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢) .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(٣) .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾(٤) .

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٥) .

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٦) .

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٧) .

﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾(٨) .

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾(٩) .

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾(١٠) .

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(١١) .

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ⑭⓪ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾(١٢) .

---

(١) سورة الإسراء : ١٢
(٢) سورة النحل ١٤
(٣) سورة المؤمنون ١١٥ .
(٤) سورة ص ٢٧ .
(٥) سورة النحل . ١٥ .
(٦) سورة القصص ٧٣
(٧) سورة الأعراف : ١٢٩
(٨) سورة النمل ٤٠
(٩) سورة محمد . ٤ .
(١٠) سورة الفرقان : ٢٠ .
(١١) سورة العنكبوت ٢ ، ٣
(١٢) سورة آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١ .

﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾[1].

فالأشياء والأحداث تتحرك على الدوام، ولكنها حركة منضبطة تحكمها النواميس من جهة، وتسير بها لغاية معينة من جهة أخرى، فلا عبث ولا فوضى ولا انفلات، ومن وراء الأشياء والأحداث قدر الله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[2].

* * *

العجز والقدرة من الأشياء التي تلفت الحس البشري كما أشرنا من قبل؛ ومقارنة العجز البشري بقدرة الخالق الذي لا يعجزه شيء من المنافذ الفطرية التي توقظ الفطرة إلى حقيقة الألوهية، فتهتدي - حين تهتدي - إلى الإله الحق، أو تنسب القدرة كلها أو شيئا منها - حين تضل - إلى كائنات أخرى فتنسب إليها الألوهية أوتشركها في الألوهية مع الله.

والجاهلية العربية التي خوطبت بهذا القرآن أول مرة لم تكن تماري في قضية العجز البشري، وقدرة الله التي لا يعجزها شيء. وقد سجل القرآن عليهم إقرارهم لله بالخلق والقوة والتدبير:

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[3].

إنما كانت مشكلتهم الكبرى كما أشرنا من قبل هي توهم وجود آلهة أخرى مع الله، واعتقاد أن لها شفاعة مستجابة عند الله، وتوجيه ألوان من العبادة لها مع الله أو من دونه، سواء كانت العبادة اعتقادا بألوهيتها، أو توجها لها بالدعاء أو الصلاة أو الذبح أو النذر أو الاستغاثة أو الاستعانة..

ولقد ركز القرآن على دحض هذه الأوهام تركيزاً شديدا حتى تتمحض العبادة لله وحده دون شريك:

---

(١) سورة الدخان: ٣٣.　　(٢) سورة الرعد ٨٠

(٣) سورة المؤمنون: ٨٤-٨٩.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١) .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٢) .

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾(٣) .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٤) .

---

(١) سورة النمل : ٥٩ـ٦٤ .
(٢) سورة الرعد : ١٦ .
(٣) سورة الفرقان : ٣.
(٤) سورة يونس . ٣١ـ٣٥

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(1) .

ولقد يبدو للوهلة الأولى أن هذه الآلهة التي كان العرب في جاهليتهم يعبدونها مع الله أو من دونه قد انتهى أمرها، فلم يعد لتلك الآيات الكثيرة في كتاب الله التي تتحدث عن «الشركاء» مكان في عالم اليوم «المتحضر» «المتقدم» «المتعلم»، وأن هذا القسم من كتاب الله يحفظ «للذكرى»! ولكن ليست له مهمة يؤديها اليوم، وليس له نداء يخاطب عقول المتحضرين! وليس هناك وَهْمٌ أبعد عن الحقيقة من هذا الوهم! فهذه الجاهلية المعاصرة بالذات ربما تكون أحوج الجاهليات لهذا النداء! فإنسان الجاهلية المعاصرة قد ألّه نفسه، وهو أبعد الكائنات عن أن يكون إلها، مع الله أو من دونه!

لقد كانت الآلهة المزعومة في الجاهلية العربية - وغيرها - كائنات أسطورية، نعم، ولكنها في وَهم أصحابها كائنات فائقة، لها صفات غير عادية، تؤهلها - في ظنهم - لمشاركة الإله في ألوهيته. أما الجاهلية المعاصرة التي تؤله الإنسان فهي هي التي تصفه بأنه ذلك الحيوان (الدارويني) المتطور، الذي تطور عن أحد القردة العليا: الشمبانزي والغوريلا والأورانج أوتانج (إنسان الغاب) والجيبون. . فياله من إله!

الإله الذي سفك من الدماء في هذا القرن الأخير وحده ما لم تسفكه وحوش الأرض ربما في تاريخها كله! والذي جعل قانونه الأسمى هو قانون الغاب: القوي يأكل الضعيف أو يزيحه من الطريق. والذي لم يكذب في تاريخ البشرية كلها أحد مثله ما بين الشعارات المرفوعة والواقع الفعلي، الذي لا يمتّ بصلة للشعار المرفوع! والذي سخر عقله الذي منحه الله إياه في صنع الشر أضعاف أضعاف ما سخره في فعل الخير، والذي نشر من الفساد والانحلال الخلقي في الأرض ما تعف عنه كثير من الحيوانات ذات الفطرة السوية التي لم تفسدها «حضارة» ذلك الإله المزعوم. ومع ذلك يقول قائلهم: إن الإنسان قد خضع لله في الماضي بسبب عجزه وجهله،

---

(1) سورة الحج: ٧٣.

والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله![1].

ونعوذ بالله من الكفر . .

ونعود إلى كتاب الله فنجده قد تعرض لتبجح المتبجحين اليوم، كأنما نزل الآن ليرد على تبجحهم، مع أنه قد أنزل من قبل أربعة عشر قرنا . . وإن هذا ذاته لمن الإعجاز!

إن الذي ألمّ بالجاهلية المعاصرة - بسبب ما حصلت عليه من المعرفة - أشنع بكثير مما كان يلم بالجاهلية العربية بسذاجة أفكارها وسذاجة معتقداتها، فضلا عما تتصف به هذه الجاهلية الحديثة من الغرور العلمي الذي يخيِّل إليها أنها «شبت عن الطوق، ولم تعد في حاجة إلى وصاية الله»[2]! والذي يخيِّل إليها من جانب آخر أنها سيطرت على البيئة!

إن زلزلة واحدة كالزلزال الذي حدث في تركيا وخسف القاعدة الحربية البحرية التي تطاول فيها أحد ضباطهم على رب العرش في علاه، ومزق المصحف وداسه بأقدامه، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وراح ضحية الزلزال عشرة آلاف من البشر[3]، وإن عاصفة واحدة كالعاصفة التي اجتاحت شمالي فرنسا فاقتلعت أربعين ألف شجرة راسية شامخة، وقتلت من قتلت، وحطمت ما حطمت في شتاء عام ١٤٢٠هـ(١٩٩٩م) . . لكفيلة أن ترد الناس إلى صوابهم، لو كانوا يعقلون . .

ولقد أنذرهم الله في كتابه الذي أنزله قبل أربعة عشر قرنا، ولا يزال الإنذار قائما إلى قيام الساعة:

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾[4].

---

(١) هذه قولة چوليان هكسلي في كتابه «الإنسان في العالم الحديث Man in the Modern World»

(٢) هذه قولة شائعة في كتاباتهم.

(٣) حدث هذا الزلزال في صيف عام ١٤٢٠ هـ(١٩٩٩م).

(٤) سورة الملك . ١٦، ١٧

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ﴾[1] .

إن العلم هبة من عند الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . . ﴾[2] .

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[3] .

وهو قمين في النفس السوية بأن يجعل الإنسان أكثر تقربا إلى الله وخشية له :

﴿ . . إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[4] .

ولكن الجاهلية المعاصرة ـ التي تستمد مفاهيمها ومشاعرها من التراث الروماني الإغريقي الوثني ـ قد ورثت فيما ورثت من ذلك التراث أن العلم شيء انتزعه الإنسان من الإله على كره منه، فهو يستخدمه للتمرد على سلطان الله، وتأليه نفسه بدلا من الله [5]، حتى يقول ذلك الملحد الذي أشرنا إليه من قبل ـ جوليان هكسلي ـ إن الإنسان كلما ازداد علما ارتفع في حس نفسه درجة، وهبط الإله في حسه في ذات الوقت درجة، حتى يأتي اليوم الذي يخلق فيه الإنسان الحياة، فيصبح هو الله!

نعوذ بالله مرة أخرى من الكفر . .

ونعود إلى كتاب الله فنجد فيه الرد على تبجح المتبجحين اليوم، كأنما أنزل اليوم ليرد عليهم :

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ㉟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾[6] .

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾[7] .

---

(١) سورة الملك : ٢٠ — (٢) سورة البقرة : ٣١

(٣) سورة العلق : ٣ـ٥ — (٤) سورة فاطر : ٢٨

(٥) راجع أسطورة «بروميثيوس سارق النار المقدسة»

(٦) سورة الطور : ٣٥، ٣٦. — (٧) سورة الملك : ٢١

فلو حجب عنهم العلم فكيف كانوا يعلمون؟ ولو أمسك عنهم الرزق فكيف يعيشون؟

وهم أنفسهم ـ أو عقلاؤهم على الأقل ـ قد بدءوا يدركون أن ماكشفه لهم العلم من الأسرار لا يقاس إلى جانب ما اكتشفوا أنهم يجهلونه من أسرار الكون! وأن كل كشف جديد يفتح الباب على مجاهيل جديدة لم يكونوا أصلا يدركون وجودها، وأنهم في كل مرة يقفون أمام حاجز جديد عليهم أن يتخطوه.. وأن الحاجز الأكبر الذي يقفون أمامه من مبدإ الأمر إلى آخر الأمر، هو: لماذا تتصرف الأشياء على النحو الذي اكتشفوا أنها تتصرف عليه، وليس على أي نحو آخر؟! أي بعبارة أخرى: سر الخلق! ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] وهم في النهاية كما وصفهم الله في كتابه المنزل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[2].

* * *

أما قضية الشفاعة المزعومة ـ التي تقوم على توهّم أن بعض هذه الآلهة المدّعاة لها شفاعة مقبولة عند الله ـ فقد عني القرآن بتفنيدها عناية واضحة، لأنها ـ فوق بطلانها في عالم الحقيقة ـ ذات أثر مفسد لعقائد الناس وسلوكياتهم، إذ تفسد التصور الصحيح لحقيقة الألوهية، وتغري البشر بمعصية أوامر الله اتكالا على شفاعة الآلهة التي تنجيهم من العقاب!

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾[4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[5].

---

(١) سورة طه: ٥٠. (٢) سورة الروم. ٧.
(٣) سورة الزمر: ٤٣. (٤) سورة النجم: ٢٦.
(٥) سورة البقرة: ٢٥٤، ٢٥٥.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ . . .﴾(٢) .

ومرة أخرى قد يبدو لأول وهلة أن معتقدات الجاهلية العربية حول الشفاعة والشفعاء قد انتهى أمرها، وأن هذا القسم من كتاب الله الذي يتحدث عن الشفاعة هو للذكرى! وليس له مكان في عالم اليوم! فنقول إن العالم الإسلامي ذاته ـ في غربة الإسلام الحالية ـ أحوج ما يكون إلى تدبر آيات الله في هذا الشأن، وقد أفسدت الصوفية الجانحة عقائد الناس، وضخّمت الشيخ في حس المريد حتى صار واسطة بينه وبين الله، وشفيعا له عند الله، لا في أثناء حياته فحسب، بل حتى بعد أن يموت بألف عام!

وذلك فضلا عن وثنيات شتى ما تزال تعيث فسادا في الأرض !

* * *

قضية الغيب ـ كما أسلفنا ـ من موقظات الفطرة، ومن المؤثرات التي توقع إيقاعات شتى على الحس البشري. فهناك باستمرار غيب لا يستطيع الإنسان إدراكه، هو المستقبل كله، سواء المستقبل البعيد أو المستقبل القريب، وهناك ـ دائما ـ رغبة ملحة عند الإنسان أن يعرف ما يحدث له غدا، ولو في خطوط عريضة إن تعذر التفصيل. ولكنه ـ في واقع الأمر ـ عاجز عن معرفة شيء يقيني بالنسبة لذلك الغيب لا بالإجمال ولا بالتفصيل . .

ومن هنا يهزه حديث الغيب !

والقرآن لا يفتأ يحدث هذه الهزة في القلوب !

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة السجدة : ٤ .   (٢) سورة سبأ : ٢٣ .
(٣) سورة الأنعام : ٥٩ .

هل هناك إحاطة أدق أو أشمل من هذه الإحاطة؟! حتى الورقة الساقطة من غصنها، حتى الحبة في ظلمات الأرض، حتى الرطب واليابس.. إحاطة تدير الرءوس! يلهث الخيال البشري في تتبعها فلا يستطيع اللحاق بها وهي تنتقل به من مكان في الأرض إلى مكان، ومن مجال إلى مجال!

﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (١).

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾(٢).

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٤).

﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦).

ويلاحظ أن حديث الغيب يأخذ مسارين اثنين، كلاهما ذو تأثير عميق في الحس البشري. أحد المسارين هو إبراز حقيقة علم الله الشامل بالغيب، التي تهز الوجدان البشري من ناحية عجز الإنسان عن استكناه الغيب، ومن ثم يروعه أن يقف - بعجزه - أمام القدرة القادرة التي لا يخفى عليها شيء، ولا يغيب عنها شيء. والمسار الثاني هو إبراز حقيقة علم الله الشامل بالغيب، الذي يراقب الإنسان في

---

(١) سورة النمل . ٦٥. (٢) سورة الرعد . ٩ - ١١

(٣) سورة طه : ٧ (٤) سورة لقمان : ٣٤.

(٥) سورة آل عمران : ٢٩. (٦) سورة المجادلة . ٧.

حركاته وسكناته ، والذي يعلم جهره وسره، بل ما هو أخفى من السر، وهو مكنونات القلب التي لا يبوح بها الإنسان حتى لنفسه! فأنى يستخفى الإنسان عن رقابة الله التي تلاحقه في كل مكان وفي كل حال، وأنّى يلجأ ليداري أفعاله عن علم الله، الذي يعلمها حال وقوعها، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة ولو كانت مثقال ذرة!

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[1] .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[2] .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[3] .

* * *

ولا يكمل حديثنا عن الإعجاز القرآني في مجال العقيدة دون أن نشير إلى أسماء الله الحسنى التي ترد ورودا ظاهرا في كتاب الله، والتي تختم بها كثير من الآيات في القرآن الكريم :

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4] .

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ . . ﴾[5] .

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ . . ﴾[6] .

إن الأسماء والصفات التي يكثر ورودها في القرآن الكريم لتؤدي مهمتين رئيسيتين إحداهما في مجال الدعوة، والأخرى في مجال التربية .

---

(١) سورة لقمان : ١٦ .
(٢) سورة الزلزلة ٦ـ٨
(٣) سورة الأنبياء : ٤٧
(٤) سورة الأعراف : ١٨٠ .
(٥) سورة الإسراء : ١١٠
(٦) سورة طه : ٨

ونتحدث هنا عن مجال الإعجاز الدعوي، ونعود إلى الحديث مرة أخرى في مجال الإعجاز التربوي.

إن هدف الدعوة الأول هو تعريف الناس بربهم الحق، وإزالة كل غبش حول قضية الألوهية في نفوس الناس، سواء كان ناشئا من قصور في العلم، أو فساد في التصور، أو عرف فاسد، أووهم عالق بالأذهان، أو جنوح إلى خرافة أو أسطورة لها ثقل الحقيقة في نفوس المؤمنين بها وهي مجرد ظن لا يقين فيه.. وقد كان ذلك كله موجودا في الجاهلية العربية، وهو دائما موجود في صورة من الصور في كل جاهلية، لا يستثنى منها الجاهلية المعاصرة، التي ابتدعت إلها سمته «الطبيعة» وأعطته صفة الحقيقة العلمية، وهو مجرد أسطورة لا وجود لها في عالم الواقع[1]، وابتدعت شيئا سمته «الخلق الذاتي» وهو أسطورة أخرى لا وجود لها في عالم الواقع، وألهت «العقل» وهو قاصر عن الإحاطة بأمور كثيرة لاتدخل في نطاق إدراكه، وألّهت «العلم» وهي ذاتها تعترف بأن ما يجهله «العلم» من أسرار الكون والحياة أكثر بكثير مما يعلمه! ثم ألّهت الهوى والشهوات التي توشك أن تدفع الإنسان إلى درك من الهبوط لم يصل إليه في تاريخه كله!

إن الداء الأكبر في الجاهلية ـ كل جاهلية ـ أنها تجهل حقيقة الألوهية!

ومن ثم كانت عناية القرآن الكبرى بجلاء هذه الحقيقة، بحيث تأخذ مساحتها كاملة في النفس، وشفافيتها الكاملة في الحس، وتأثيرها الكامل في الوجدان.. فتستقيم حياة الإنسان في الأرض ـ وهي لا تستقيم بغير ذلك! ـ لأن أي غبش في هذه القضية يحدث اختلالات مدمرة في كيان الإنسان، ويقوده إلى الضلال. وسوف نفصل الحديث عن هذه النقطة عند الحديث عن الإعجاز التربوي في كتاب الله.

أما هنا فنشير إلى أن إحدى الوسائل الرئيسية في تعريف الناس بربهم هي الأسماء والصفات الواردة في القرآن، التي يتكرر ورودها كثيرا جدا فيه، وكثيرا ما

---

(١) نقصد أسطورة الطبيعة الخالقة التي قال عنها دارون إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق!

تكون ختاما للآيات القرآنية فتختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] أو قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[2] أو قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] إلى غير ذلك من الأسماء والصفات.

ويجيء ذكر الأسماء والصفات إما بتعبير مباشر كقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[4] ، أو قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[5] . . وإما يجيء تعقيبا على مشهد من المشاهد الدنيوية أو الأخروية بما يناسب طبيعة المشهد، وبما يدل في الوقت ذاته على بعض الهدف من إيراد المشهد، أي أنه يورد للدلالة على صفة من صفات الله جل وعلا، إلى جانب ما يكون من أهداف أخرى في السياق.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[6] .

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ

---

(١) سورة البقرة . ٢٢٤
(٢) سورة الحج : ٦٣ .
(٣) سورة البقرة : ٢٨٤ .
(٤) سورة الإخلاص ١ ـ ٤ .
(٥) سورة الحشر : ٢٢ ـ ٢٤
(٦) سورة آل عمران : ١٥٤، ١٥٥ .

خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١).

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(٢).

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾(٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٤).

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٥)

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٦).

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾(٧).

﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾(٨).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾(٩).

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١٠).

والأمثلة أكثر من أن تحصى . . والهدف الذي يتحقق من خلالها ـ مع كثرتها وتعددها ـ هو تكوين تصور واضح لحقيقة الألوهية يشمل كل المجالات وكل الأحوال التي تعرض للبشر ، بحيث يشعر الإنسان أيّا كان توجهه أن الله تجاهه ،

---

(١) سورة التوبة . ١١٧ ، ١١٨

(٢) سورة الأنعام . ٩٦ .

(٣) سورة الأنعام : ٦٢

(٤) سورة الأنعام : ٧٣ .

(٥) سورة الإنسان : ٣٠ ـ ٣١ .

(٦) سورة الانفطار ٦ ـ ٨ .

(٧) سورة التين ٧ ، ٨ .

(٨) سورة العاديات : ٩ ـ ١١ .

(٩) سورة النور : ٢٥

(١٠) سورة المجادلة ١

بصفة من صفاته أو اسم من أسمائه، فلا يكون شيء في حياة الإنسان أو فكره أو مشاعره إلا وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالله سبحانه وتعالى. وسوف نعاود الحديث عن هذه النقطة لنزيدها جلاء حين نتحدث عن الإعجاز التربوي في القرآن الكريم.

* * *

بهذه الوسائل جميعا، ومن هذه المنافذ جميعا تنفذ إلى القلب البشري حقيقة لا إله إلا الله، فتتعمق وتتوثق وترسخ، حتى تصبح يقينا لا يتزلزل، وعقيدة صافية لا غبش فيها ولا خفاء، ولا أوهام ولا التواء..

ولسنا نعرف ـ بصورة يقينية ـ ماذا كان في الكتب المنزلة قبل القرآن في قضية لا إله إلا الله، قبل أن تحرّف على أيدي الكهنة ورجال الدين ومن تبعهم من عامة الناس، وإن كنا نعرف يقينا ـ من كتاب الله ـ أنها كلها دعت لتوحيد الله، وعبادته وحده بلا شريك..

ولكن القرائن كلها تقول إنه ما من كتاب ـ قبل القرآن ـ تحدث عن هذه القضية بهذا العمق، وهذه السعة، وهذا الوضوح، وهذا الشمول، ودخل بها من كل منافذ الفطرة، ومن كل مسارب النفس، بحيث تستوعب النفس من جميع أقطارها، وتتغلغل فيها إلى أعمق أعماقها كما فعل القرآن.. كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، التي تمت بها النعمة واكتمل الدين:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (١).

وذلك جانب من جوانب الإعجاز في هذا الكتاب الجليل، جدير بالتأمل، والتدبر، والالتفات.

---

(١) سورة المائدة: ٣.

من الإعجاز التربوي

نستطيع في كلمة مختصرة أن نقول عن الإعجاز التربوي في كتاب الله إنه هو الذي أخرج من القبائل المتناحرة في الجزيرة العربية «أمة» لأول مرة في تاريخها، وليس أي أمة، إنما خير أمة أخرجت للناس . .

لقد عاشت هذه القبائل أمدا لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، تتكلم لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها ما بين قبيلة وقبيلة، وتسكن أرضا متصلة وإن تباعدت أرجاؤها، وتتشابه عقائدها وإن اختصت كل قبيلة بوثن أو بضعة أوثان، وتتماثل عاداتها وتقاليدها . . ولكنها مع ذلك لا تكوّن «أمة»، لأن النزاعات والحروب المستمرة بين القبائل، وما يتخلف عنها من الثارات والحزازات المتجددة على مر الأيام، لا تجعل القلوب تصفو ولا تتوحد، ولا تتيح فرصة للنفوس كي تتقارب على أمر عام تلتقي عليه فتلتقي عنده، وتتجمع من الشتات . .

وقد كانت تحدث أحيانا تحالفات بين بعض القبائل وبعض، ولكنها أبعد شيء عن أن تشكل «أمة» متحدة متجانسة. فإنما هي تحالفات تقوم بها بعض القبائل ضد بعضها الآخر، لتزيد من قوتها فترهبها القبائل الأخرى، فلا تفكر في العدوان عليها أو الإغارة على مائها أو كلئها، بينما تتاح لها هي فرصة الإغارة والعدوان معتمدة على قوتها المستمدة من تحالفها مع قبيلة أخرى أو جملة قبائل تتقاسم معا على الولاء في السراء والضراء . . !

وربما كان حلف الفضول أقرب شيء إلى التجمع على أمر عام، وهدف سام لا صلة له بالعدوان، وإنما هو لدفع العدوان ورد الحقوق المغتصبة وحماية الضعفاء، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنه : دعيت إلى حلف في الجاهلية لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت . . ولكنه مع ذلك كان ما يزال في محيط «القبائل» وليس نابعا من الرغبة في إقامة أمة موحدة، أو دولة موحدة . .

وكان القرآن هو الذي حقق المعجزة . .

جمّع القلوب المتنافرة، فتقاربت ، فاتحدت ، فالتحمت، لأول مرة في التاريخ، وعلى نحو غير مسبوق في التاريخ ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

* * *

كيف تحققت المعجزة؟

أما أنها معجزة. . وأما أنها تحققت بالفعل، فأمر يشهد به الواقع التاريخي . .

ولقد حاولت دعوى «القومية العربية» ذات يوم أن تزعم لها طريقا إلى هذه الوحدة، فقالت إن الأمة العربية كانت تتوق إلى التجمع والتوحد ولكنها لا تجد «الزعيم القائد» الذي يوحدها ، فلما وجدته في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، سارعت إلى تحقيقه . .

وليس شيء أكذب من هذا على التاريخ . .

فإن هذه «الأمة» المزعومة لم تجتمع على شيء اجتماعها على حرب ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإيذائه والصد عنه وعن دعوته، واتهامه بالسحر والجنون والتلقي من الشياطين!

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ (٢).

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾(٣).

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (٤).

إنما الذي حقق المعجزة هو القرآن . .

هو الذي ألان تلك القلوب الصلدة، وأذاب الران الذي كان يغشّى القلوب

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .
(٢) سورة سبأ : (٦، ٧).
(٣) سورة القلم . ٥١ .
(٤) سورة الفرقان : ٤١، ٤٢ .

فيكسوها بالطبقة المتحجرة التي تمنع النور من النفاذ إليها، وتصدها عن بشاشة الإسلام:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (١).

فأي شيء في هذا الكتاب هو الذي جمّع تلك القبائل المتناحرة في أمة، ثم أخرج منها خير أمة أخرجت للناس؟

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٢).

* * *

إذا استعرضنا الكتاب نجد أن القضية الكبرى فيه هي قضية لا إله إلا الله.

ولو تحرينا الأداة التي أخرج الله بها هذه الأمة إلى الوجود، لوجدنا أنها هي قضية لا إله إلا الله! فكيف تفعل لا إله إلا الله في القلوب والعقول، وكيف تفعل في الوجدان والسلوك، وكيف تصل في النهاية إلى بناء أمة متضامّة متماسكة من لبنات كانت متنافرة من قبل، تأبى أن تجتمع في كيان غير كيان القبيلة، الذي يشكل في حس أصحابه ربّا من الأرباب:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت، وإن ترشد غزية أرشد!(٣)

بل كيف وصلت إلى تفتيت القبيلة، التي تقوم على رابطة الدم، إذا لم تستقم على الحق، وتنشئ بدلا منها كيانا متماسكا يقوم على رباط لا ينبع أساسا من رابطة الدم، وهو في الوقت ذاته أقوى من رابطة الدم بما لا يقاس؟!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٤).

* * *

(١) سورة الزمر. ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة آل عمران: ١١٠.
(٣) البيت لدريد بن الصمة.
(٤) سورة التوبة: ٢٣، ٢٤.

فلنأخذ لبنة من اللبنات، ولنتتبع تحولاتها من الجاهلية إلى الإسلام . .

هذا إنسان جاهلي . . يعيش بفكر جاهلي، وقلب جاهلي، وسلوك جاهلي . . فما اهتماماته؟ لأي شيء يعيش؟! ما غاية الوجود في حسه وفي تصوراته؟

مجموعة من الشهوات من كل نوع : شهوة المال . شهوة القوة . شهوة الجنس . شهوة الطعام والشراب . . ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١).

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (٢).

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (٣).

والفرصة المتاحة لهذا المتاع هي هذه الحياة الدنيا التي هي في حس أصحابها فرصة واحدة، إذا انقضت لا تعود. فضلا عن كونها ليست مضمونة من حيث استمرار الصحة أو القوة أو الثروة أو التمكن . . ومن ثم فكل فرصة تسنح للاستمتاع فلا ينبغي أن تُفَوَّت، وكل نوع من المتاع ينبغي أن يباح، فلا حلال ولا حرام، ولا امتناع عن المتاح :

فلولا ثلاث هن من شيمة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عوّدى!

فمنهن سبقى العاذلات بشربة ... كُمَيْت متى ما تُعْلَ بالماء تزبد

وكرّى إذا نادى المضاف محنّبًا ... كسيد الغضا - نبهته - المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهنكة تحت الطراف المعمّد

فيذكر الشاعر(٤) الخمر والحرب والنساء على أنها هي التي يحرص على الحياة من أجلها، ولولاها ما كان حريصا على الحياة ولا مباليا بالمرض أو الموت، وذلك بعد أن قال :

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات، هل أنت مُخْلدى؟!

---

(١) سورة آل عمران : ١٤ .
(٢) سورة التكاثر : ١، ٢ .
(٣) سورة البقرة : ٢١٢ .
(٤) هو طرفة بن العبد.

فما دام أنه لا خلود، فدعني إذاً أعب من هذه الشهوات!

ولكن الانقياد لهذه الشهوات لابد أن ينشأ عنه الصراع والصدام بين البشر، ما لم يكن هناك ما يمنع الاحتكاك أو يلطّفه. وهنا تنقسم المجتمعات في الجاهلية إلى نوعين: نوع همجي متبربر، لا نظام فيه ولا ضوابط، تؤخذ فيه الأمور بقوة الذراع:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ، ومن لا يَظْلِم الناسَ يُظْلَمِ[1]

ونوع «متحضر» تحكمه قوانين، تحدد الطريقة التي يتم بها استمتاع كل إنسان «بحقوقه»، مع تقليل الصراع إلى أقصى حد مستطاع. وإن كانت اهتمامات الناس في تلك الحضارات الجاهلية هي ذات الاهتمامات التي يعيشها الناس في المجتمعات الهمجية، وإن طليت بطلاء يزينها في أعين الناس! ثم إن التنظيم الذي يمنع التصادم أو يقلله محدود بحدود «القوم» أو «الوطن».. أما في محيط البشرية الواسع فالقوة هي الوسيلة المعتمدة، وويل للمغلوب!

هذا في السلوك.. أما في التصورات فخذ هذا النموذج المعبر عن موقف الجاهلية.. كل جاهلية:

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت

ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت

وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أو أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري![2]

لو أتيح لسائمة من السوائم أن تعبر باللغة التي نتحدث بها نحن، فماذا كانت تقول غير ما قالته هذه الأبيات؟!

وذلك كله فضلا عن الضلال الروحي والفكري والسلوكي الذي ينشأ من عقيدة لاتؤمن بالله الواحد، ولا تؤمن بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، فتنتهي الحياة

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى.
(٢) هذه الأبيات للشاعر الجاهلي المعاصر «إيليا أبو ماضي»

في حسها عند الحياة الدنيا، وتنحصر الأهداف في الغلبة والمتاع، وهي ذات الأهداف التي يعيش من أجلها الحيوان، وإن اختلفت الصور، واختلفت الأدوات.

ولا يحسبن أحد أن الجاهلية المعاصرة ناجية من هذه الضلالة. بل هي غارقة فيها إلى الآذان، وإن كان لديها من الأدوات ما تزيف به الواقع، وتزخرفه بشتى الزخارف، وتتحدث به عن «القيم العليا» و«حقوق الإنسان» و«العدالة» و«الروح الإنسانية» و«حق تقرير المصير».. وعشرات أخرى من القيم الجميلة الخلابة التي لارصيد لها في عالم الواقع.. إنما يحكم الواقع قانون الغاب: القوي يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق. ومن كان في شك من هذا فلينظر إلى قضية واحدة من قضايا الحاضر، قضية الأرض المغتصبة في فلسطين، ووقوف «القوى العظمى» مع المجرم المغتصب ضد صاحب الحق المستضعف المأكول!

ولكنا معنيون هنا بالحديث عن الجاهلية العربية بالذات، التي عاشت آماداً من الزمن لا يعلمها إلا الله، عاجزة عن تكوين «أمة»، حتى آمنت بلا إله إلا الله، فتكوّن منها خيرة أمة أخرجت للناس.

نريد أن نتعرف على نوع التغيير الذي حدث فيها، والكيفية التي حققت بها لا إله إلا الله ما حققت من النتائج في عالم الواقع، لا في عالم الوهم، ولا في عالم الشعارات المطلقة في الهواء.

لا إله إلا الله.. إذن فهو إله واحد، ومعبود واحد، ومتجه واحد محدد السمات..

ويكفي هذا لتغيير كل شيء!

﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [1].

لا إله إلا الله.. فلا تشتت بعد الآن بين الآلهة المتعددة التي تشتت النفس وتمزق

---

(١) سورة يوسف ٣٩، ٤٠

وحدتها ، فتفقد طمأنينتها ، فينشأ القلق والحيرة والاضطرابات النفسية والعصبية ، والخمر والمخدرات والجريمة التي تعج بها الجاهليات .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١) .

لا إله إلا الله . . فمنجهه هو المنهج ، وأمره هو الأمر ، وشرعه هو الشرع : ما أحله هو الحلال ، وما حرمه هو الحرام ، وما أباحه هو المباح ، وما منعه فهو الممنوع .

وقوله هو الحق . .

وهو يقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسوله ، والقرآن هو الوحي الذي أنزله على رسوله ، وإن هناك بعثا ونشورا ، وحساباً وجزاء ، وجنة وناراً . . فذلك كله حق ، وهو حق اليقين . .

وإذن ، كيف تصير الآن الأمور؟

فلننظر إلى صفحة «القيم» . . كيف كانت في الجاهلية؟

ماذا كان على رأسها؟

القبيلة . . وشرف القبيلة . . وأرض القبيلة ، ومراعى القبيلة ، ومنعة القبيلة . . ثم بالنسبة للكيان الفردي : الخمر والنساء ، والبيع والشراء ، وما يقدر عليه الفرد من ألوان المتاع . .

والحياة الدنيا هي مبلغ العلم ، وغاية الهم ، ومجال التطلع ، ومسرح السعي ، وغاية الغايات . .

والآن فلننظر كيف صارت صفحة القيم على هدى لا إله إلا الله . .

شواغل الحياة الدنيا ما تزال . . ولكن بضوابط . .

ورابطة الدم ما تزال . . ولكن بضوابط . . والمال والبنون . . والبيع والشراء . .

---

(١) سورة الرعد ٠ ٢٨

وقسط من المتاع . . كل ذلك ما زال موجودا في الصفحة ولكن في حدود تلك الضوابط التي تحدد الحرام والحلال والممنوع والمباح . .

ولكن أين مكانها في الصفحة؟! على رأس القائمة ؟! أم إن أمراً آخر هو الذي أصبح اليوم يحتل رأس القائمة، ويلوّن بلونه كل ما عداه؟

هنا التحول الأكبر، الذي صنع كل التحولات . .

على رأس القائمة اليوم الإيمان بالله، ومن ثم التوجه إليه بالخوف والرجاء . . بكل مشاعر القلب، وكل ألوان السلوك . .

وعلى رأس القائمة بعد الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، وجنة ونار . .

وعلى رأس القائمة مع الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بمحمد ﷺ نبيا ورسولا ومعلما وقائدا ومرشدا وهاديا إلى الصراط المستقيم . .

ثم يجيء كل شيء بعد ذلك . . فهو موجود، ولكنه موجود بالضوابط التي يصنعها الإيمان بالله واليوم الآخر . . ثم إنه في وجوده لا هو مبلغ العلم، ولا غاية الهم، ولا غاية السعي، إنما هو متاع متاح ـ بضوابطه ـ تمارسه النفس المؤمنة ولكن لا تتعلق به، وتتخلى عنه في يسر إذا اقتضى ذلك أمر يتعلق بالقيم العليا، المسطورة في رأس الصفحة ، وعلى رأسها الجهاد في سبيل الله . الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا . .

ما أعظم التغيير!

ثم أمر آخر . .

لا غبش اليوم ولا أوهام حول غاية الوجود الإنساني، التي قال عنها الشاعر الجاهلي المعاصر لست أدري! والتي تفضي بها اللاأدرية إلى الشعور بعبثية الحياة، ومن ثم عبثية كل «القيم» الموجودة في الحياة!

اليوم تملك النفس المؤمنة «دليل الرحلة» من أولها إلى آخرها، وتملك إجابة واضحة محددة لأسئلة الفطرة التي ما تفتأ تلح ـ بوعي أو بغير وعي ـ تطلب إجابة

محددة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ من أين جئنا؟ إلى أين نذهب بعد الموت؟ لماذا (لأي غاية) نعيش؟ كيف (بأي منهج) نعيش؟

القرآن يحوي دليل الرحلة . .

من أين ؟ من عند الله . . هو الخالق الذي يخلق كل شيء، ولا خالق غيره .

إلى أين؟ إلى الله مرة أخرى، ليحاسبنا على ما عملناه في الحياة الدنيا . . ثم خلود في الجنة أو النار . .

لماذا؟ لنعبد الله . . بشتى أنواع العبادة . . نعبده بالاعتقاد بوحدانيته، ونعبده بالشعائر، ونعبده بتحكيم شريعته، ونعبده باتباع ما أنزل . .

كيف؟ باتباع منهج الله، المبين في الكتاب والسنة بشتى أنواع البيان من تفصيل أو إجمال . .

ومن ثم فلا عبثية في الحياة، ولا هي مخلوقة بالباطل:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (١).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢).

والحياة الدنيا فترة ابتلاء، يترتب عليها في النهاية الجزاء . .

ومادة الابتلاء هي متاع الأرض:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (٣).

وخلاصة القضية أن الأرض مزينة بألوان من المتاع، وفي النفس البشرية ميل إليه مركوز في الفطرة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٤).

---

(١) سورة المؤمنون . ١١٥ .
(٢) سورة ص ٠ ٢٧
(٣) سورة الكهف : ٧.
(٤) سورة آل عمران. ١٤ .

والله الخالق صاحب الأمر لم يحرم المتاع :

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١) .

ولكنه وضع له ضوابط سماها «حدود الله»، وقال عنها مرة : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ (٢) . ومرة ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾ (٣) . . .

ومن ثم كان الابتلاء ـ بمعنى الاختبار ـ هو في هذا الأمر : إلى أي مدى يستجيب الإنسان لرغبة المتاع؟ هل يقف عند الحدود التي فرضها الله أم يتجاوزها؟

ثم كان الجزاء في الحالتين متفقا مع سلوك الإنسان تجاه تلك الحدود :

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤) .

وتلك هي قصة الحياة . . !

وتلك هي غاية الوجود الإنساني كما حددها خالق الإنسان وخالق الحياة . .

أي تحول في داخل النفس يحدث حين تؤمن بلا إله إلا الله؟!

* * *

ولا يقف الأمر عند الإنسان الفرد . .

فتلك اللبنات التي شكلتها لا إله إلا الله ذات خواص معينة، تتميز بها عن غيرها من اللبنات .

ومن خواصها ـ التي تشبه ظاهرة المغنطيس ـ التجاذب الذي يؤدي إلى الالتحام!

والتجاذب في أصله موجود في الفطرة . فالنفس البشرية ذات نزعتين في آن واحد : نزعة فردية ونزعة جماعية . الأولى تهدف إلى تحقيق الذات، والثانية تهدف إلى الاجتماع بالآخرين (٥)، ولكنها في الجاهلية لاتصل إلى حد الالتحام الحقيقي . . لأن الإنسان في الجاهلية يصنع حول نفسه سياجا أكبر من حجمه

---

(١) سورة الأعراف . ٣٢ (٢) سورة البقرة : ١٨٧ .
(٣) سورة البقرة . ٢٢٩ . (٤) سورة النازعات ٣٧ـ٤١ .
(٥) انظر إن شئت كتاب «دراسات في النفس الإنسانية»

الحقيقي، فمهما تجاذبت الوحدات، فهذا السياج الخارجي قد يسمح بالاقتراب ولكنه يمنع الالتحام! أما في النفوس المؤمنة، التي تواضعت لله، وذهب عنها كبرياء الذات، فلا يوجد ذلك السياج الوهمي الذي يقيمه الفرد حول ذاته، ومن ثم تقترب القلوب ـ التي يجذبها كلها الحب لله ولرسوله ـ فتلتحم ذلك الالتحام الرائع الذي شهدنا نماذج رائعة منه في ذلك الجيل الفريد الذي رباه رسول الله ﷺ ، ولم يخل منه جيل من أجيال المسلمين. وهو هو الذي أنشأ تلك «الأمة» لأول مرة في تاريخها، ثم اتسع حتى شمل شعوبا وأجناسا لا يجمع بينها لون ولا لغة ولا مصالح قريبة . . ولكن تجمع بينها لا إله إلا الله . .

وهكذا تنشئ لا إله إلا الله «الإنسان الصالح» الذي يقيم الخلافة الراشدة في الأرض فردًا وجماعة :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (١) .

والإنسان الراشد ليس هو أي إنسان، وإنما هو شيء متميز لم تعرفه الأرض إلا على خط الإيمان الذي بثه الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى محمد ﷺ ، ولكنه ـ بشهادة الله سبحانه وتعالى ـ لم يبلغ سَمْتَه الأعلى كما بلغه في أمة محمد ﷺ التي شهد لها خالقها بكونها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢) .

أما مواصفات ذلك الإنسان الراشد فهي مبثوثة في كتاب الله، تكوّن في مجموعها منهجا شاملا متكاملا لم يعرفه ـ في شموله وتكامله ـ أي منهج من المناهج التي تعج بها الأرض ، والتي تهدف ـ كما تنص صراحة ـ إلى إنشاء «المواطن الصالح» ، وليس «الإنسان الصالح». وشتان ـ في واقع الأرض ـ بين «المواطن الصالح» و«الإنسان الصالح». . فالروسي الذي يقتل الشيشانيين مواطن صالح في عرف قومه! واليهودي الذي يقتل المسلمين ويغتصب أرضهم وديارهم وكرامتهم مواطن صالح في عرف قومه! والهندي الذي يقتل أهالي كشمير ويحرّم عليهم أن يقرروا مصيرهم لأنفسهم مواطن صالح في عرف قومه! وما أبأسهم جميعا وما أبعدهم عن صفة الإنسانية فضلا عن صفة الإنسان الصالح!

* * *

(١) سورة البقرة: ٣٠ (٢) سورة آل عمران ١١٠

وإذا عدنا إلى الإعجاز التربوي في القرآن الكريم، ذلك الذي أخرج خير أمة أخرجت للناس، فنحن أمام بحر زاخر، من حيث وردته فهو زاخر، ومن حيث نظرت إليه بهرك ما يشتمل عليه من أعماق.

إن الركيزة الكبرى في هذا المنهج الرباني - كما أشرنا من قبل - هي الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر.. وعلى قدر رسوخهما في النفس يكون مدى تحقق الخيرية، وتحقق الصلاح في الإنسان..

فإذا أدركنا ذلك، فإن الإعجاز التربوي في القرآن لا ينحصر في مجرد بث هذه العقيدة في النفوس، وإنما في تعميقها وترسيخها وتثبيتها، حتى تخالط بشاشتها القلوب فتصبح جزءا منها لا ينفصل عنها.

وهنا لابد أن يحضرنا الإعجاز البياني، والإعجاز الدعوي اللذان تحدثنا عنهما من قبل.. كل منهما هو في ذاته إعجاز قائم بذاته، ولكنه في الوقت ذاته أداة لإعجاز آخر!

كان الإعجاز البياني - كما بينا - أداة عظمى في مسيرة الدعوة، جعلت العقيدة تنفذ إلى النفس من كل منافذها، وتصل إلى أعماقها، بالبيان الأخاذ، وبتنوع العرض، وباستخدام أساليب مختلفة تشمل البيان المباشر، والقصة، والمثل، وغيرها من أساليب البيان..

ثم كان الإعجاز البياني والإعجاز الدعوي معًا أداة للإعجاز التربوي، الذي يرتكز أساسًا على تعميق الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر في نفس الإنسان، وصولا إلى الإنسان الراشد الذي قال الله في وصفه:

﴿.. وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [2].

* * *

(١) سورة الحجرات: ٧.　　(٢) سورة فصلت: ٣٠.

ولنحاول هنا أن نغترف غرفة من البحر الزاخر . .

أشرنا من قبل إلى تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر على أنه الأداة العظمى في المنهج الرباني . وأشرنا من قبل كذلك إلى تحديد أبعاد رحلة الإنسان في الوجود، منذ النشأة إلى المعاد، وما يقدمه هذا التحديد من إجابات واضحة محددة لأسئلة الفطرة التي تلح على النفس بوعي وبغير وعي : من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ . . وأثر ذلك في وضوح الرؤية عند الإنسان لأبعاد الرحلة وأهدافها، ونوع الابتلاء (الاختبار) الذي يجري له فيها، مما يدعوه إلى التناغم مع هذه الأهداف وعدم الخروج عليها، ويؤدي به في الوقت ذاته إلى الطمأنينة في أثناء المسيرة، والصبر على مصاعبها إيمانا منه بأن «أمر المؤمن كله خير»[1] ، وبأنه ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [2] .

ونشير هنا إلى التوازن الذي ينشئه المنهج الرباني في النفس المؤمنة بين الرغبة والقيد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والجماعة، وأثر ذلك التوازن في إنشاء «الإنسان الصالح».

فأما بين الرغبة والقيد، فالإسلام لا يكبت الرغبات الفطرية ولكنه يضبطها . وفرق هائل بين الكبت والضبط . فالكبت هو استقذار الدافع الفطري، وعَدُّه ـ في ذاته ـ دنسا لا يليق بالإنسان أن يشتمل عليه، بينما الضبط هو اعترافٌ بالدافع الفطري نظيفا في ذاته، مع التحكم في القدر الذي يستجيب به الإنسان إليه، والطريقة التي يستجيب بها .

الكبت عملية مفسدة للمشاعر، مفسدة للأعصاب، مدمرة للطاقة الحيوية . . والضبط عملية صحية تكسب الإنسان قوة في الشخصية، وقدرة على التحمل، ورفعة في الأهداف . .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [3] .

---

(١) يقول عليه الصلاة والسلام «عجبي للمؤمن كل أمره خير، إذا أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإذا أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» .

(٢) سورة الزمر . ١٠ . (٣) سورة الأعراف ٠ ٣٢ .

فلا تحريم للطيبات . .

ولكن في الوقت ذاته لا إسراف في التناول :

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١) .

وهكذا يتوازن الإنسان بين الرغبة والقيد . فلا الرغبة تؤدي بالإنسان إلى الإسراف الذي يفسد الشخصية ويؤدي بها إلى الترهل أو إلى الطغيان وكلاهما من الأمراض . ولا القيد يؤدي إلى الامتناع البتة الذي يؤدي إلى الاضطرابات النفسية والعصبية والقلق وغيرها من الأمراض .

وأما بين الدنيا والآخرة فالتوازن كذلك مطلوب :

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (٢) .

لا رهبانية في الإسلام .

الرهبانية تعطيل لدفعة الحياة ، وتعطيل لدور الإنسان في عمارة الأرض وترقيتها وتجميلها ، وتحقيق «التسخير» الذي منحه الله للإنسان ليؤدي به دور الخلافة في الأرض :

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (٣) .

وذلك فضلا عن كون أصحابها لا يستقيمون عليها ، إنما تعتل نفوسهم ويَفْسُدون :

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٤) .

وفي الوقت ذاته ، فإن الاستغراق في المتاع الأرضي ونسيان الآخرة فتنة ضخمة يتعرض لها الإنسان إذا ترك نفسه على هواها ، فينتهي به الأمر إلى البوار ، لأنه لا يقف في إشباع رغباته وشهواته عند الحد المأمون ، وإنما يتجاوزه بما يهلكه في الدنيا ، ويجعل نصيبه في الآخرة هو النار !

---

(١) سورة الأعراف : ٣١

(٢) سورة القصص ٧٧ .

(٣) سورة الجاثية ١٣ .

(٤) سورة الحديد : ٢٧ .

والمنهج الرباني يقول للإنسان : لا تحرم نفسك من المتاع المتاح، ولكن التزم فيه بالحدود التي حددها الله، فكل شيء جعل الله له حدودا يعلم اللطيف الخبير أنها تحقق الخير وتمنع الشر، فأباح الطيبات وحرّم الخبائث ودعا إلى عدم الإسراف حتى في المباح . . وفي الوقت ذاته، يركز المنهج الرباني تركيزا شديدا على اليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، لأن اللطيف الخبير يعلم أن ذكرى اليوم الآخر هي الأداة الكبرى التي تساعد الإنسان على ضبط شهواته ورغباته، والوقوف بها عند الحلال الذي أحله الله، والقدر الذي أباحه الله؛ لأن القضية في حس المؤمن تصبح موازنة بين الإنسياق وراء الشهوات، ويقابلها في الآخرة عذاب لا قبل للإنسان باحتماله، والقناعة بالقدر المباح من المتاع، ويقابلها في الآخرة جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فيقنع ويرضى، وتطمئن نفسه، ولا يشعر بالحرمان، فضلا عن الشعور بالرفعة والطهارة والارتقاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (١).

وأما التوازن بين الفرد والجماعة، فهو من أبرز ومن أجمل سمات المنهج الرباني . .

إن الجاهليات كلها في القديم والحديث تجنح إلى أحد طرفي الميزان فيختل الطرف الآخر . . تجنح إلى تكبير الفرد، وتعطيه من «الحقوق» ومن «الحريات» ما يجعله يأخذ حجما أكبر مما ينبغي له، فيختل المجتمع في المقابل وتنحل روابطه، ثم يفسد الفرد ذاته بالتدليل الزائد عن الحد، فلا يجد مجتمعا يردعه، أو يرده إلى الجادة . . وأبرز مثال على ذلك المجتمعات «الليبرالية» في الجاهلية المعاصرة، التي انحلت أخلاقها، وتعالن الناس فيها بالفاحشة سوية وشاذة، بحجة «الحرية الشخصية» الممنوحة لكل فرد، يصنع بها ما تمليه عليه شهواته، ويحرم على المجتمع أن يتدخل في الأمر . وثم جاهليات أخرى تركز على المجتمع فتسحق الفرد وتكتم أنفاسه بحجة أن المجتمع هو الأصل، ومهمة الفرد هي خدمة المجتمع والمحافظة على تماسكه وترابطه . .

---

(١) سورة النساء : ٥٦ ، ٥٧

كلتا النظرتين جانحة ، والظلم واقع فيها على الناس بصورة من الصور ، سواء بطغيان الفرد الذي يفتت المجتمع ، أو بطغيان المجتمع الذي يسحق الفرد . .

والإسلام ليس كذلك . .

إنه يعطي الفرد حقوقًا وضمانات ، تحقق له كرامته ، وتحقق له مجالا معقولا لنشاطه ، فيستطيع أن ينشط كما يشاء ، في الحدود التي لا تؤذي غيره ، ولا تؤدى إلى الانحلال والتفسخ ، فيختار التعليم الذي يناسبه ، ويختار العمل الذي يناسبه ، ويختار الزوجة التي تناسبه ، والعلاقات التي تناسبه في الحدود التي لا توقع ضررا على غيره حسب قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» . فلا يباح له التملك بالغصب أو السرقة أو أكل أموال الناس بالباطل ، ولا الربا ولا الاحتكار لأن هذا كله يوقع الضرر بالآخرين . ولا يباح له الفاحشة ولا مقدماتها التي تفضي إليها ، ولا يباح له الغيبة ولا النميمة ولا التجسس ولا تتبع عورات الناس أو اقتحام خصوصياتهم . . وفي الوقت ذاته ، يعطي المجتمع حق «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» بل يجعله واجبا تكليفيا على المجتمع ، لكي لا يخرج الأفراد عن حدودهم ، ولا يتسببوا في إيذاء المجموع . ويوجب على المجتمع التكافل ، والتعاون على البر والتقوى ، وإزالة المظالم ، والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا . . وكلها أعمال جماعية يقوم بها المجتمع .

ويصف الرسول ﷺ طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع في هذه الصورة الرائعة :

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فكان بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا يمرون على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا في مكاننا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا» (١)

والإسلام يصل إلى هذا التوازن بين الفرد والجماعة بطريقة غاية في البساطة وغاية في الإبداع كذلك . . فهو ابتداء لا يَعُدُّ العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة صراع وتضاد كما تَعُدُّها الجاهليات سواء منها ما يرتكز على الفرد وما يرتكز على المجتمع . فالأولى ترى الفرد هو الأساس ، وترى المجتمع هو القيد الذي يسعى إلى التضييق على الفرد وخنقه وكبته ، ومن ثم تحيط الفرد بالضمانات التي تمنع المجتمع قدر الطاقة من التدخل في شأنه ، حتى لو ألحد ، أو حتى لو فسق ، مادام فسقه

(١) أخرجه البخاري

«قانونيا»! والثانية ترى المجتمع هو الأساس ، والفرد هو المتربص أبدا للعدوان عليه ، والخروج على طاعته ، فتظل تضع حوله القيود ، وتهدده بالعقوبات !

والإسلام دين الفطرة . .

والفطرة ـ كما أشرنا آنفا ـ تشتمل على نزعتين أصيلتين : نزعة فردية ونزعة جماعية ، إحداهما تسعى إلى إثبات الذات والأخرى تسعى إلى الاجتماع بالآخرين . والنزعات الفطرية لاعداء بينهما في الأصل ، كما تكون في الفطرة السوية ، إنما ينشأ الخلل حين تزيد جرعتها أو تنقص عن الوضع السوي ، فيحدث المرض ، مثلها كمثل إفرازات الجسم . فالجسم يكون في وضعه الصحيح طالما كل جهاز فيه يقوم بوظيفته الطبيعية بصورة سوية ، ولكنه يمرض حين تختل بعض وظائفه بالنقص أو الزيادة . والنفس كذلك هي في وضعها الصحيح طالما كل جهاز من أجهزتها يقوم بعمله الفطري في صورته الطبيعية ، ولكنها تمرض حين تختل بعض وظائفها بالنقص أو الزيادة . وعند بعض الناس تنشط النزعة الفردية أكثر من اللازم ، فيصبح الشخص أنانيا ، وميّالا إلى العدوان على حقوق الآخرين ، أو تنشط النزعة الجماعية أكثر من اللازم ، فيخنع ، وتنبهم شخصيته ، ويصير إمعة لا كيان له . . (1)

والإسلام يهدف إلى أن تكون النفس في وضعها الفطري السوي ، فيصبح الإنسان ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (2) كما خلقه الله ، كما يسعى إلى علاج الخلل حين يحدث ، بتوجيهاته التي تعيد التوازن إلى النفس ، وتدفع بها إلى الرشد . . وعندئذ يتوازن الفرد والمجتمع ، ويقل الصراع إلى أدنى حد مستطاع ويحل محله التكافل والتعاون والترابط والتحاب :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » (3)

وبهذه الألوان من التوازن : بين الرغبة والقيد ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الفرد والمجتمع ، ينشئ الإسلام «الإنسان الصالح» الذي تعمر به الأرض . .

* * *

---

(1) انظر إن شئت حديثا عن هذه النقطة في كتاب «دراسات في النفس الإنسانية» ، فصل «خطوط متقابلة في النفس الإنسانية» ، وكذلك فصلا بنفس العنوان في كتاب «منهج التربية الإسلامية» .

(2) التين : 4 .   (3) متفق عليه .

وهلم الآن نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر . .

ما مواصفات الإنسان الصالح؟

إنها مبثوثة في تضاعيف الكتاب . . لاتكاد تخلو سورة من السور قصيرة أو متوسطة أو طويلة من إشارة إلى صفة ـ أو مجموعة صفات ـ للإنسان الصالح، أو ـ من الجانب الآخر ـ صفة أو مجموعة صفات للإنسان المنحرف الذي يحذّر القرآن الناس من أن يكونوه . .

وهنا يجيء دور «الترغيب والترهيب» في منهج التربية القرآني[1] . .

خذ أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . .﴾[2].

فهنا يوصف الإنسان المنحرف ببعض صفاته : إنه يطغى لأنه يتوهم أنه غني عن الله، ويروح ينهى عبدا عن الصلاة والعبادة لربه، وفي الأخير يكذب ويتولى، والقرآن يذكره بأنه راجع إلى ربه وهو ما غفل عنه فلجّ في طغيانه، وينذره بالعذاب الأليم في الآخرة. كما يوصف الإنسان الصالح ببعض صفاته فهو عابد مصلّ، وهو مهتد إلى ربه، آمر بالتقوى . . فتتقابل الصفات، وتحدث العظات . .

فإذا كانت هذه أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ، فقد توالى نزول القرآن حتى تم التنزيل، وفي كل سورة إشارة أو إشارات . .

خذ بعض النماذج، وارجع إلى كتاب الله تجد المزيد والمزيد والمزيد . .

---

(١) وفي السنة كذلك.

(٢) سورة العلق ١ ـ ١٦.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1].

وخذ على الجانب الآخر :

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[2].

وخذ هذه التوجيهات :

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ

---

(١) سورة الفرقان : ٦٣ ـ ٧٦.   (٢) سورة القلم : ١٠ ـ ١٦.

إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (١).

وخذ توجيهات في مجالات معينة يُطلب لفت النظر لها والتركيز عليها :

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٤).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٥).

وعشرات وعشرات وعشرات من التوجيهات ، يتخرج على هداها الإنسان الصالح في مدرسة القرآن .

* * *

(١) سورة الإسراء : ٢٣ـ٣٩ (٢) سورة البقرة : ٢٦٣ـ٢٦٥ .
(٣) سورة البقرة ٢١٦ . (٤) سورة النساء : ١٩ . (٥) سورة التوبة : ٣٨ .

وهلم الآن نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر . .

هناك ما نستطيع أن نطلق عليه اسم «دروس تربوية في القرآن الكريم»

والقرآن كله توجيهات تربوية ، هدفها هداية الإنسان إلى ربه ، ليعبده العبادة الحقة ، فيستقيم حاله في الدنيا والآخرة ويكون من الفائزين .

ولكن هذه التوجيهات أنواع مختلفة . فمنها توجيهات مباشرة ، أوامر ونواه واضحة محددة : افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا . ومنها ما يؤثر عن طريق الترغيب والترهيب : الترغيب في الخصال الحميدة والأفعال الحميدة ، والترهيب من الخصال السيئة والأفعال السيئة . ومنها ما هو «درس» يعرض للعبرة ، ويحتاج إلى تدبر لاستخلاص العبرة المطلوبة ، وهذا الذي نريد الآن أن نعرض بعض النماذج منه لا على سبيل الحصر ، ولكن على سبيل المثال .

خذ هذا الدرس من سورة آل عمران :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (١) .

فهؤلاء قوم يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم «أولو الألباب» ، وهو في الحقيقة وصف للصحابة رضوان الله عليهم ، فقد كانوا على الصورة التي يصفها سبحانه في هذه الآيات . .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٥ .

فماذا يقول أولو الألباب هؤلاء وماذا يفعلون؟!

إنهم بادئ ذي بدء يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، أي أنهم لا يكفّون عن ذكر الله في جميع أحوالهم. ثم إنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض، فيهديهم تفكيرهم إلى أن السموات والأرض لم تخلقا باطلا، وإنما خلقتا بالحق. وإذ كان الأمر كذلك، فلايمكن أن تكون الحياة الدنيا هي نهاية المطاف. فكم من ظالم في الحياة الدنيا ظل ظالما حتى القطرة الأخيرة من حياته ومات وهو ظالم. وكم من مظلوم ظل مظلوما في الحياة الدنيا حتى آخر قطرة من حياته ومات وهو مظلوم. فلو كانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف، فهل حق الحق الذي خلقت به السموات والأرض؟ كلا! إنما يحق الحق حين تكتمل الحلقة. حين يجيء اليوم الآخر فيجازى كلٌّ بما اكتسب في الحياة الدنيا، فيعاقب الظالم، على ظلمه ويعوّض المظلوم على صبره في الحياة الدنيا.

وحين يصل تفكيرهم إلى هذه النقطة، يسارعون إلى التضرع إلى ربهم أن يقيهم عذاب النار. وكأنما يتقدمون بمؤهلات تسوّغ ما طلبوا من ربهم من الوقاية من النار، فيقولون إنهم سمعوا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا.. والمنادي هو الرسول ﷺ، وقد سارعوا إلى إجابة النداء بما توحي به الفاء في قوله ﴿فَآمَنَّا﴾ فالفاء تفيد التعقيب السريع.

ومن ثم يدعون ربهم أن يكفر عنهم سيئاتهم ويتوفاهم مع الأبرار، ولا يخزيهم يوم القيامة، ويحقق لهم ما وعدهم على لسان الرسل من إدخال الصالحين الجنة..

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

هؤلاء قوم يتذكرون، ويتفكرون، ويتدبرون، ويتضرعون.. فلأي من هذه استجاب لهم ربهم؟!

هل استجاب للتذكر وهو مجرد تذكر؟ أو للتفكر وهو مجرد تفكر؟ أو للتدبر وهو مجرد تدبر؟ أو للتضرع وهو مجرد تضرع؟!

هنا الدرس التربوي..

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ..﴾.

فالاستجابة هي على العمل، الذي انبثق عن التذكر والتفكر والتدبر والتضرع.

وإذ كانت سورة آل عمران كلها مشغولة بمعركة لا إله إلا الله، فقد اختير من الأعمال ما يناسب تلك المعركة الهائلة: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾. هؤلاء هم الذين يكفر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة التي وعدها إياهم..

وتلك هي العبرة من الدرس المعروض..

المطلوب أن تتحول المشاعر والأفكار إلى عمل مشهود في واقع الحياة.. وعندئذ يستجيب رب العالمين.

* * *

وخذ هذا الدرس الذي يتجه ذات الوجهة وإن كان في جوٍّ مختلف:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(١).

التوجيه هو ذات التوجيه..

ليس الإيمان مجرد مظاهر.. إنما هو صدق في العمل نابع من صدق في المشاعر، فالأصل هو الاعتقاد الصحيح، الذي يقتضي الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، والذي يترجم إلى عمل مشهود في واقع الأرض، يذكر منه هنا إيتاء المال ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس.. سلوك كامل شامل ينبثق من العقيدة الصادقة ويشمل مساحات واسعة من المشاعر والتصرفات..

---

(١) سورة البقرة ١٧٧.

من هنا كان من أعجب العجب أن يتسرب الفكر الإرجائي إلى هذه الأمة، ذلك الفكر الذي يقول إن الإيمان هو التصديق والإقرار، وليس العمل داخلا في مسمى الإيمان [1]، والذي يقول: «من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام!».

قالوا: إن الله يخرج من النار قوما لم يعملوا خيرا قط.. ولا حرج على فضل الله. ولكن انظر إلى حال الأمة إن قال كل واحد فيها أنا مؤمن ما دمت مصدقا ومقرا، ولا عليّ أن أعمل! كيف يكون حالها؟ إنها تكون ذلك الغثاء الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، الذي تتداعى عليه الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها [2].. فهل تكون عندئذ هي الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، والتي تكون شاهدة على كل البشرية؟!

تستطيع الشجرة أن تعيش وتثمر وتمد أفرعها في الفضاء، وهي تحمل من بين أوراقها بضع أوراق صفراء.. ولكن يوم تقول كل ورقة في نفسها: من حقي أن أكون صفراء ذابلة وإن جفت المياه في عروقي مادمت لم أسقط على الأرض بعد، فكم تعيش هذه الشجرة على ظهر الأرض؟! وهل تكون حينئذ هي الشجرة الطيبة الموصوفة في كتاب الله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [3]، أم تكون شجرة متهالكة لا تؤتى أكلاً ولا تظل أحدا؟!

وإن كان «مرجئة الفقهاء» قد قالوا إن العمل ليس داخلا في مسمى الإيمان (يقصدون الاسم) ولكنه مطلوب كالإيمان، فالخلاف معهم هين. وإنما المرجئة الذين أسقطوا العمل إسقاطا من الحساب وقالوا يكفي التصديق والإقرار ليكون

---

(١) المسمى ليس هو الاسم، إنما هو الشيء أو الشخص الذي يحمل الاسم. ومنه قولهم: اسم على مسمى، أي شخص يتصف بالصفات التي يدل عليها الاسم. ولكن كثيرا من الناس يستخدمون لفظ المسمى ويقصدون به الاسم.

(٢) قال عليه الصلاة والسلام: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعي الأكلة على قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل» رواه أحمد وأبو داود.

(٣) سورة إبراهيم ٢٤، ٢٥.

الإنسان مؤمنا كإيمان جبريل (!) هؤلاء قدموا للأمة مرضا هو اليوم مستعص على العلاج . . إلا أن ترجع الأمة رجوعا صحيحا إلى كتاب الله ، لتستوعب ما فيه من الدروس .

* * *

وخذ هذا الدرس في مجال آخر في ذات الاتجاه :

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ . .﴾(١) .

النصر من عند الله :

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٢) .

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ (٣) .

ولكن على من يتنزل النصر من عند الله؟

إن هذه الآيات الأربع المتتالية من سورة الأنفال تحدث عن أربعة شروط أساسية للنصر .

أول هذه الشروط أن يكون هناك مؤمنون . . والله لا يعجزه أن يقهر الأعداء بغير مؤمنين ، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ، ويقول سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ (٤) ولكن هكذا اقتضت سنته : أن يكون هناك مؤمنون في الأرض يدفع الله بهم الكفار ، ويكونون ستاراً لقدر الله ، فقد قال سبحانه : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٥) . وقال : ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾(٦)

---

(١) سورة الأنفال : ٦٢ ـ ٦٥ .
(٢) سورة آل عمران ' ١٢٦ .
(٣) سورة آل عمران : ١٦٠ .
(٤) سورة فاطر : ٤٤ .
(٥) سورة البقرة . ٢٥١ .
(٦) سورة محمد : ٤ .

وقال كذلك : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] .

والشرط الثاني أن يكون هؤلاء المؤمنون متآلفة قلوبهم . فقال قال سبحانه : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2] فتآلف القلوب شرط لتنزل النصر من عند الله . وفي الآية الكريمة إشارة إلى نوع التآلف المطلوب ، فليس هو التآلف على مصالح الأرض القريبة ـ حتى إن حدث ذلك التآلف في واقع الأرض ـ إنما هو التآلف على العقيدة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ . لا المال ولا غيره من مصالح الأرض .

والشرط الثالث هو التجرد لله والتوكل الصادق عليه ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ . وعلى أحد التفسيرين يكون المعنى ، حسبك الله ومن معك من المؤمنين ، فإن التوكل الصادق لا يتنافى مع اتخاذ الأسباب . ووجود المؤمنين مع الرسول ﷺ هو من الأسباب التي لابد من اتخاذها مع التوكل على الله . وعلى التفسير الآخر : حسبك الله ، ومن معك من المؤمنين حسبهم الله كذلك . وعلى أي التفسيرين ، فالتجرد لله مطلوب من أجل تنزل النصر .

والشرط الرابع هو الاستعداد للقتال حين يدعو الداعي إليه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾[3] .

وفي آيات أخرى في كتاب الله ترد شروط أخرى تؤهل لتنزل النصر من عند الله ، ولكن هذه الشروط الأربعة المذكورة في سورة الأنفال أساسية في جميع الأحوال .

وفي ذلك درس تربوي لهذه الأمة ، وبالذات للذين لا يأبهون لهذه الشروط ولا يحققونها في ذات أنفسهم ، ثم يقولون : ما بال النصر لا يتنزل علينا ؟ . . ألسنا مؤمنين ؟ !

* * *

(١) سورة الأنفال . ١٧ (٢) سورة الأنفال : ٤٦ . (٣) سورة الأنفال : ٦٥ .

وهذا الدرس في مجال آخر، في اتجاه آخر

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [1].

الإشارة في الآيات هي لهزيمة المسلمين في أحد.. وقد كان في وقعة أحد دروس كثيرة للمؤمنين، أبرزتها سورة آل عمران، ومنها هذا الدرس.. فقد بدأت المعركة بنصر المسلمين، ولكن الرماة الذين أمرهم رسول الله ﷺ ألا يغادروا أماكنهم بأي حال من الأحوال ولو رأوا المسلمين تتخطفهم الطير، أباحوا لأنفسهم التصرف في الأمر حين ظنوا أن المعركة قد انتهت، وخافوا أن يضيع نصيبهم من الغنائم، فخالفوا أمر الرسول ﷺ ونزلوا من فوق الجبل، فاغتنم الفرصة خالد بن الوليد ـ وكان يقاتل في صفوف الكفار إذ لم يكن قد أسلم بعد ـ فكرّ بخيله من وراء الجبل وعاد يهاجم جيش المسلمين وهم بغير حماية، إذ كانت الحماية التي خطط لها القائد ﷺ هي الرماة من فوق جبل الرماة.. فوقعت الهزيمة المرة التي قتل فيها سبعون من الصحابة فيهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وشج وجه الرسول ﷺ وكسرت رباعيته.. فأصاب المؤمنين غم كبير وقالوا: أنّى هذا؟! كيف وقع هذا؟ كيف هزمنا ونحن المؤمنون وهم الكفار؟!

وتنزل القرآن يعطيهم الدرس، أو مجموعة الدروس..

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [2].

فالتنازع، والاختلاف، وعصيان أمر القائد كان السبب في الهزيمة: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

ولكن الدرس لا ينتهي هنا..

إن الله يقول لهم إن ما أصابهم يوم التقى الجمعان هو بإذن الله! وإن له حكمته عند الله: كي يتميز الصف، ويُعْلَم المؤمنون، ويعلم المنافقون..

---

(١) سورة آل عمران ١٦٥ـ١٦٧.　　(٢) سورة آل عمران ١٥٢

وهذا في ذاته درس هائل . . فقدر الله لا ينفي مسئولية الإنسان عن عمله حين يخطيء! بل يظل مسئولا عن خطئه، وعن نتائج خطئه، ولا ينفي المسئولية عنه أنه قدر مقدر من عند الله.

درس ضد الاحتجاج بقدر الله لنفي مسئولية الإنسان عن أخطائه . . ودعوة للإنسان أن يقوم بالعمل على وجهه الصحيح، فإذا جاء قدر الله على غير ما يرغب، فعندئذ يقول إنه قدر مقدور لا حيلة له فيه، ولكن يعلم في الوقت ذاته أنه قدر له حكمته عند الله، سواء أدرك الحكمة في لحظتها أم غابت عنه . .

وإذا تتبعنا السورة فسنجد درسا آخر:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١).

إن وقوع قدر الله على غير ما يرغب الإنسان ليس معناه القعود والاستكانة بحجة التسليم بقدر الله! إنما التسليم بقدر الله معناه ألا يتفطر قلب الإنسان ولا تذهب نفسه حسرات ويتوقف عن العمل، بل يعمل، متطلعا إلى قدر من الله جديد، يغير الله به من حال إلى حال. فهؤلاء الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى معاودة القتال، فذهبوا بجراحاتهم، منّ الله عليهم بأن جعل الأعداء ينكلون عن القتال، ويكتفون من الغنيمة بالإياب!

ومن قبل جاء في سياق السورة درس آخر:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢).

فليست الهزيمة العسكرية مسوغا للانكسار النفسي ولا الهزيمة الداخلية. فاستعلاء المؤمن لا ينخدش بالظروف العارضة التي تعرض له، لأنه يعتز قبل كل شيء بالإيمان:

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٢ ـ ١٧٤.　　(٢) سورة آل عمران : ١٣٩.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١).

* * *

وخذ هذا الدرس عن طبيعة العلاقة بين قدر الله وواجب الإنسان من زاوية أخرى:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢).

فقدر الله هنا في صالح المؤمنين. فهو يتوعد الذين كفروا بالهزيمة، لأنهم لا يسبقون قدر الله مهما كان لديهم من القوة، ولأن قوتهم لاتعجز الله. وقد قدر الله التمكين لهذا الدين، وللمؤمنين، حيث قال سبحانه: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٣).

فماذا يكون من أمر المؤمنين وقد أعلن الله لهم قدره المقدور:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٤).

أيتواكلون.. ويقولون: قد تكفل الله بهزيمة الكفار، فلنقعد ولننتظر وعد الله، والله لا يخلف الوعد:

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (٥).

كلا! إن الآية التالية مباشرة للآية التي أخبر الله فيها بهزيمة الكفار هي أمر للمؤمنين أن يعدوا القوة بكل ما يستطيعون من وسائل الإعداد..

---

(١) سورة آل عمران ١٤٦-١٤٨
(٢) سورة الأنفال ٥٩، ٦٠
(٣) سورة النور: ٥٥
(٤) سورة الصف: ٩.
(٥) سورة الروم ٦

وقد يسأل سائل: وهل الله في حاجة لجهد المؤمنين لينفذ قدره بالقضاء على الكفار؟

كلا! ولكن ـ كما قلنا ـ هكذا اقتضت سنته.. أن يكون هناك مؤمنون مجاهدون يدفع الله بهم أهل الباطل، ويبليهم الله البلاء الحسن على جهادهم، وإن كان هو الذي ينصرهم على أعدائهم..

وقد يسأل سائل: ولنفترض أن الناس تقاعسوا عن الجهاد، فهل يعجز الله عن إنفاذ وعده بسبب تقاعس الناس؟!

كلا! ولكنه يجري سنة أخرى من سننه:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

وفي جميع الأحوال ينفذ الله قدره، ولكن من خلال سننه التي لا تتبدل:

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (٣).

* * *

وهذا درس في مجال مختلف..

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (٤).

لقد كان نوح قد تلقى وعدا من ربه أن أهله سينجون من الغرق إلا من سبق عليه القول:

---

(١) سورة محمد. ٣٨.

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) سورة الطلاق: ٣.

(٤) سورة هود: ٤٤ ـ ٤٦

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (١).

ولقد نادى ابنه ـ وكان في معزل ـ فلم يصخ للنداء وقال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء!

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٢).

ونجا نوح ومن معه، واستقروا على اليابسة. ولكن الفجيعة في ولده كانت ما تزال تثير لواعجه، فتوجه إلى ربه بهذا التساؤل الحزين: لقد وعدتني يارب أن ينجو أهلي، وها هو ذا ولدي قد غرق. ووعدك حق لا يخلف. . فكيف حدث ما حدث؟!

ويجيئه الجواب الحاسم: ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(٣).

يا لله! ما أعظم المفاجأة!

لم يقل له إنه ليس ولدك! فهو ولده من صلبه. . ولكن قال له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾. . وعلل انقطاع الرابطة بينهما تعليلا واضحا: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

إن الرابطة التي يَعُدُّها الله سبحانه وتعالى ليست رابطة الدم. . وإنما هي رابطة العقيدة. هي الرباط الأول والأقوى، هي العروة الوثقى. هي التي تحكم الروابط جميعا. . فإذا انقطعت فلا رباط!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة هود: ٤٠.
(٢) سورة هود. ٤٢، ٤٣.
(٣) سورة هود: ٤٦.
(٤) سورة التوبة ٢٣، ٢٤.

ورابطة الدم ليست ساقطة من الحساب، فالله يقول: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (١). ولكن متى؟ حين تتحقق الرابطة الأولى التي لارابطة قبلها. . فإن اجتمع الكل على الإيمان، فأولو الأرحام ـ بحكم الفطرة ـ بعضهم أولى ببعض وأقرب لبعض. أما إذا افترق الطريق فلا يعود هناك رابط يربط على الإطلاق، بل يصير الرباط خروجا على أمر الله، محرما في دين الله.

والعجب كل العجب لهذه الأمة حين دخلت في التيه، فنادت بالقومية والوطنية رباطا يلغي رباط العقيدة، فخرجت عن أمر ربها ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (٢). ولم تدرك أنه كان من كيد أعدائها لها لتتخلى عن منبع قوتها الحقيقي وتصبح غثاء كثغاء السيل. . والدرس موجود في كتاب الله!

* * *

وهذا درس آخر في المجال نفسه، ولكن من مدخل مختلف:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (٣).

فهناك بادئ ذي بدء إشارة خاصة إلى دور الأم ومقامها واستحقاقاتها على أولادها. فالوصية هي للوالدين، ولكن الذي يذكر في السياق ذكرا مفصلا هو الأم، بما يوحي بأن حقها على أبنائها أكبر من حق أبيهم. وذلك ما فصله حديث الرسول ﷺ حين سأله سائل: من أولى الناس بحسن صحابتي قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك؟ قال: ثم من؟ قال أمك! قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك!

ولكن الدرس الذي نحن بصدده هو في مجال آخر من مجالات التربية الإسلامية.

فالوصية هي للوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾.

ولكن انظر موضوع الوصية: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.

---

(١) سورة الأنفال: ٧٥.
(٢) سورة الأعراف: ٣٠.
(٣) سورة لقمان: ١٤.

درس هائل في الحقيقة . .

إن العلاقات كلها ، بما فيها علاقات الأولاد بوالديهم ، ليست مباشرةً بين بعضهم وبعض! إن هناك علاقة سابقة ، علاقة أقوى وأشمل ، تندرج تحتها كل العلاقات ، حتى العلاقات التي تنشئها رابطة الدم ورابطة الرحم . . إنها العلاقة مع الله! ومن خلال تلك العلاقة الكبرى ـ وفي ظلها ـ تأتي كل علاقات البشر بعضهم ببعض .

ويتضح من ذلك ـ ضمنا ـ أن أي علاقة تقوم بين إنسان وإنسان ، لاتتصل ولا تنبع من تلك العلاقة الكبرى فلا وزن لها في المنهج الرباني ، وهي ساقطة من الحساب!

ويتضح كذلك ـ ضمنا ـ أن كل العلاقات بين البشر ، التي يجب أن تكون متصلة بالعلاقة الكبرى ونابعة منها ، يجب أن تكون مصطبغة بصبغتها غير مناقضة لها ولا حائدة عنها :

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (١) .

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢) .

وليس معنى ذلك أن علاقة المسلمين بغيرهم هي دائمًا علاقة العداء والحرب :

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٣) .

فالمعاملة الحسنة للآخرين ـ غير المحاربين ـ خلق إسلامي أصيل . ولكن البر والقسط شيء والموالاة شيء آخر!

بر وقسط ، نعم ، ولكن لا ولاء !

---

(١) سورة البقرة ١٣٨ .　　(٢) سورة المجادلة (٢٢)

(٣) سورة الممتحنة : ٨ .

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (1).

* * *

وهذا درس فريد في مجال الإيمان :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾(2).

والذي يلفت النظر في هذا الدرس أن المخاطبين الذين يطلب منهم الإيمان هم مؤمنون بالفعل! وهم مؤمنون بكل ما يطلب منهم الإيمان به، والدليل من الآية ذاتها أنهم يخاطبون بلقب الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ . . ولا يكونون مؤمنين ـ ولا يخاطبهم الله بلقب الإيمان ـ حتى يكونوا قد آمنوا بالفعل بالله ورسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل، والملائكة والنبيين واليوم الآخر . .

فما دلالة التوجيه الرباني؟!

لو كان الخطاب لغير المؤمنين لكان بلاشك دعوة لهم إلى الإيمان. أما وهو خطاب للمؤمنين بالفعل، فالخطاب له معنى آخر . .

إنه دعوة لترسيخ الإيمان وتثبيته في قلب المؤمن. وتذكير له بأن الإيمان ليس درسا يلقى ثم ينتقل منه إلى غيره. إنما هو درس يستوعب ثم ينتقل معه إلى غيره. درس دائم في حياة المؤمن. درس لا ينبغي أن يغفل عنه ولا عن مقتضياته، ولا أن يفرط فيه، أو يتغافل عنه، أو يتقاعس عن تكاليفه الدائمة في القلب والجوارح. في الفكر والسلوك. في الوجدان وفي واقع الحياة.

وهذا يلفتنا إلى أمر له أهمية خاصة بالنسبة لهذه الأمة بالذات . .

إنها ليست مجرد أمة من الأمم. ولكن الله أخرجها لتكون «خير أمة»، وليست مهمتها أن تهتدي في ذات نفسها فحسب كغيرها من الأمم السابقة، بل أن تكون شاهدة على كل البشرية.

---

(1) سورة المائدة : ٥٥.   (2) سورة النساء ١٣٦.

﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (١).

وذلك لأنها أمة خاتم النبيين، الذي لن يجيء نبي بعده، والذي أرسل إلى البشرية كافة. وهي المكلفة بحمل رسالته من بعده. وأداتها الأولى في حمل هذه الرسالة والقيام بتكاليفها هي صدق الإيمان، ورسوخ الإيمان، والمحافظة الدائمة على الإيمان.

لذلك يخاطبهم ـ وهم مؤمنون ـ فيقول لهم ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. . .﴾.

وبهذه المناسبة نقول إن عالمية الدعوة منصوص عليها نصا صريحا في الآيات المكية ذاتها، ولم تكن «تطورا» في فكر الرسول ﷺ بعد أن دانت له الجزيرة ودخل الناس أفواجا في دين الله كما يزعم المستشرقون في أباطيلهم. ففي السور المكية الأولى التي نزلت والمسلمون في مكة مشردون مضطهدون، والرسول ﷺ لايجد من قريش أذنا صاغية، نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢). وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

كما يتوجه الخطاب في القرآن في أكثر من موضع إلى «الإنسان» لا إلى قوم بعينهم من بني الإنسان:

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾(٥).

فالمخاطبون المباشرون بهذه الآيات هم قريش، أو هم العرب، ولكنهم لايخاطبون بوصفهم قريشا بالذات، ولا بوصفهم عربا، ولكن بوصفهم من بني «الإنسان» الذين توجه إليهم الدعوة جميعا، فيسمعها منهم من يتاح له أن يسمع!

---

(١) سورة البقرة. ١٤٣.
(٢) سورة القلم ٥١ ـ ٥٢
(٣) سورة الأنبياء: ١٠٧.
(٤) سورة الانفطار ٦ ـ ٨
(٥) سورة الانشقاق. ٦

وكذلك يأتي الحديث عن «الإنسان» عامة في مثل قوله تعالى :

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (١) .

﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ (٢) .

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٣) .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٤) .

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٥) .

ولكن ربما كانت ألطف إشارة إلى أن المخاطب بهذا القرآن هو البشرية كلها ـ على سبيل القطع ـ وليس قوما معينين منها ، هي التي وردت في موضعين اثنين ، بصورتين مختلفتين ، في آيتين مكيتين :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾(٦) .

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾(٧) .

فالذين حملوا في الفلك المشحون لم يكونوا ـ قطعا ـ ذرية المخاطبين بهذا القرآن! سواء كانوا قريشا ، أو من يتاح له من العرب أن يسمع ، أو كل من استمع بعد ذلك! إنما كانوا ذرية البشرية الأولى على عهد نوح . والمحمولون في الجارية لم يكونوا كذلك هم العرب المخاطبين بالقرآن أول مرة ، ولا غيرهم ممن جاء بعدهم . ولكن الله يقول لهم : «حملناكم»! حملناكم يا بني الإنسان! فالخطاب موجه إلى البشرية كافة ، من خلال كل من يستمع إلى الخطاب!

---

(١) سورة فصلت : ٥١ .
(٢) سورة المعارج . ١٩ ـ ٢٢ .
(٣) سورة الإنسان : ١ ، ٢
(٤) سورة التين : ٤ ـ٦ .
(٥) سورة العصر . ١ـ٣.
(٦) سورة يس : ٤١
(٧) سورة الحاقة : ١١ .

وهكذا تتأكد عالمية الدعوة، وعالمية الخطاب، وعالمية الرسالة، سواء بالنصوص المباشرة الصريحة، أو بالإشارة المتضمنة للمعنى، أو بالأوصاف التي تصف النوع الإنساني كله، ويدخل المخاطبون المباشرون فيها من بين المعنيين بالخطاب!

ولقد كانت هذه التوجيهات كلها لونا من التربية لهذه الأمة، لتوسيع آفاقها، وإعدادها لرسالتها، لكيلا تنحصر في ذاتها ـ فضلا عن أن تنحصر في قبيلة أو عرق أو لون أوجنس أو لغة أو أرض ـ وإنما تتعامل مع «الإنسان» من حيث هو إنسان ملتزمة في الوقت ذاته بالمعيار الرباني. ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [1].

* * *

وهناك دروس أخرى تأتي من خلال التقديم والتأخير في السياق نضرب لها الأمثلة الآتية:

(١) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

يلاحظ في سياق الآية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدم ـ لفظا ـ عن الإيمان بالله. والإيمان بالله لا يتقدم عليه شيء. تلك بديهية من بدهيات العقيدة. والمتدبر لكتاب الله يدرك التركيز الشديد في القرآن كله على هذه القضية، وأنها محور العقيدة، ومحور الدعوة، ومحور الرسالة التي أرسل بها الرسل جميعا إلى أقوامهم. فما معنى تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ لفظا ـ في الآية على الإيمان بالله؟

معناه أولا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء مهم في ذاته. يبلغ من أهميته أن يقدم ـ لفظا ـ على الإيمان بالله.

ومعناه كذلك أن حقيقة هذا الدين لا ترسخ في الأرض إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إن خيرية هذه الأمة تتقرر ـ أول ما تقرر ـ بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

---

(١) سورة الحجرات: ١٣. (٢) سورة آل عمران: ١١٠.

ويؤكد هذه الأهمية أن الأمة التي تقاعست عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعنت في كتاب الله : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [١] .

فإذا كانت الخيرية هنا ترتكز على قيام الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واللعنة هناك سببها ـ أو من أسبابها ـ عدم قيام الأمة بتلك المهمة ، فإن هذا يبين لنا مدى أهمية هذا الأمر في حياة الأمة . ذلك أن التفلت من التكاليف طبع موجود في البشر ، فإن لم يعالج بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن الفساد «يظهر» ـ أي يستشرى ـ في الأرض :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[٢] .

والطريقة الوحيدة لمنع الفساد من الأرض هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بدرجاته المختلفة ، وباختلاف المكلفين بكل درجة من درجاته . .

وهذا هو الدرس الذي تبرزه الآية عن طريق تقديم لفظ على لفظ في السياق .

(٢) ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣] .

هنا أيضًا قدم شيء في السياق على الإيمان . فقوله تعالى : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هو الأمر المختص بالعقيدة . أي المختص بالإيمان . ولكنا نجد في السياق أن البصيرة قدمت ـ لفظا ـ على الإيمان الذي لا يتقدم عليه شيء . فما معنى التقديم؟

معناه أولا أن البصيرة أمر مهم في الدعوة ، يبلغ من أهميته أن يقدم في السياق على قضية الإيمان التي لا يتقدم عليها شيء . وتلك إشارة واضحة إلى أهميتها .

ومعناه ثانيا أن الدعوة إن لم تكن على بصيرة ، فإنها لا تؤدي مهمتها المرجوة . وهذا أمر نلحظه جيدا في وقتنا الحاضر ، حيث يذهب كثير من الجهد الذي يبذله

---

(١) سورة المائدة ٧٨ ، ٧٩ .   (٢) سورة الروم ٤١ .

(٣) سورة يوسف ١٠٨ .

بعض الدعاة بلا مردود حقيقي، برغم إخلاصهم في الدعوة، لنقص عندهم في البصيرة، يجعلهم لا يسلكون بدعوتهم المسلك الذي يؤثر في النفوس، بل قد يؤدي أحيانا إلى انصراف الناس عنهم، وعدم الاستفادة من المادة الدعوية التي يقدمونها، وفي ذلك من الخسارة مافيه.

(٣) ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١).

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ (٢).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (٣).

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (٤).

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٥).

في هذه الآيات كلها يتقدم العمل الصالح على الإيمان ـ لفظا ـ في الآية. وقد قدمنا أن الإيمان لا يتقدم عليه شيء. فتقديم العمل هنا له دلالة.. بل دلالات!

الدلالة الأولى أنه ذو أهمية بالغة، حتى إنه يقدم على الإيمان لا في آية واحدة بل في آيات متعددة في كتاب الله.

والدلالة الثانية أن الترجمة الواقعية للإيمان هي العمل الصالح، فلا يسمى إيمانا إن لم يترجم إلى عمل في واقع الأرض.

والدلالة الثالثة أنه لا يمكن أن يُخْرَجَ العمل من مسمى الإيمان كما يزعم المرجئة، طالما كانت له هذه الأهمية الواضحة التي تجعله يتقدم على الإيمان في تلك الآيات.

والدلالة الرابعة أنه لا يمكن أن يكون «مغايرا» لحقيقة الإيمان كما يزعم المرجئة

---

(١) سورة النحل: ٩٧.
(٢) سورة طه ١١٠
(٣) سورة الأنبياء ٩٤.
(٤) سورة النساء: ١٢٤
(٥) سورة غافر: ٤٠.

كذلك، ويستدلون استدلالا خاطئا بأن واو العطف تقتضي المغايرة لأن الشيء لايعطف على ذاته! مخالفين بذلك ما يعرفه البلاغيون وأهل اللغة من جواز عطف الخاص على العام، والعام على الخاص، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾[1]. فجبريل وميكال هما من الملائكة دون شك، وهما معطوفان في الآية على كلمة ﴿مَلائِكَتِهِ﴾.

ثم إنه وردت في كتاب الله آيات تحدد المؤمنين الذين يدخلون الجنة بأنهم هم الذين يعملون الصالحات بغير فصل بين الأمرين ولا عطف، كقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[3]. بما يؤكد أن العمل لاينفصل عن الإيمان!

(٤) ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [4].

في هذه الآية تقدم ذكر التسبيح على ذكر الإيمان. والدلالة الواضحة لذلك هي إبراز أهمية التسبيح بالنسبة للمؤمن. فالمؤمن لابد أن يسبح الله. والتسبيح بالنسبة له هو نوع من العبادة التي يؤديها لله، بل هو عنوان العبادة ومقتضاها؛ فلا إيمان بغير تسبيح. كما أن التسبيح هو التعبير التلقائي عن الإيمان، وهو الأداة التي يتقرب بها العبد من ربه، فيقربه إليه، فيكون من الصالحين.

(٥) ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [5].

هذا موسى عليه السلام يكلمه ربه، فيشتاق إلى رؤية ربه، ويتوجه بهذه الرغبة إلى مولاه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [6].

---

(١) سورة البقرة: ٩٨.
(٢) سورة الكهف: ٢.
(٣) سورة الإسراء: ٩.
(٤) سورة غافر: ٧.
(٥) سورة الأعراف: ١٤٤.
(٦) سورة الأعراف: ١٤٣.

إنها تجربة هائلة تلك التي خاضها موسى عليه السلام، لا يطيقها إلا أولو العزم من الرسل. ولو شاء الله سبحانه وتعالى أن يقول له ﴿لَن تَرَانِي﴾ وكفى، فذلك يحسم القضية لأن الله لا يراه أحد في الحياة الدنيا. ولكن الله أراد أن تمتلئ روح موسى عليه السلام بمشاعر الرهبة تجاه ربه، ويعلم سبحانه أن ذلك معين له في مهمة الدعوة التي أرسل من أجلها، فهي تعمق إيمانه، وتعمق طاقته في الدعوة، وتعينه على تحمل الجهد الذي تقتضيه الدعوة من الدعاة..

ولما أفاق من الهول الذي غشيه حين اندك به الجبل وهو واقف يترقب رؤية ربه، كلمه ربه مرة أخرى ليطمئنه، ويزيل عنه آثار الهول الذي غشيه. ويتوقع الإنسان أن يقول له ربه إنه اصطفاه على الناس بتكليمه إياه.. وأي اجتباء أكبر من تكليم الله له؟ وأي رفع لدرجاته؟ وأي قربى إلى الله أعظم من هذه القربى؟!

ولكنا نجد في السياق أن أمرا آخر قد قدم على هذا الشرف العظيم الذي تفضل الله به على موسى! إنه الرسالة!

﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾.

الرسالة إذن هي المقدّمة.. هي التشريف الأعظم، وهي التكريم الأعظم..

نعم.. إن تكليم الله لموسى هو تكريم عظيم له، ولكن الأهمية الكبرى هي للرسالة. هي التي فيها الهدى للناس، لجمهور كبير من الناس..

التكليم أمر يعتز به موسى عليه السلام، ولكنه أمر يخصه وحده. أما الرسالة فلا تخصه وحده، وإنما يعم خيرها محيطا واسعا من البشر.. ولهذا تقدم في السياق!

(٦) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ (١).

في الآية السابقة على هذه في السياق يحذر الله المؤمنين من الاستماع إلى الخبثاء من أهل الكتاب، الذين يسعون إلى إغواء المسلمين عن دينهم، حسدا وحقدا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (٢).

---

(١) سورة آل عمران: ١٠١.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٠.

وقد تكرر هذا التحذير في أكثر من آية :

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(١) .

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾(٢) .

ويتوقع الإنسان أن يقول الله لهم ـ تنبيها وتحذيرا ـ كيف تكفرون ورسول الله بين ظهرانيكم؟! فلا شك في أن وجود الرسول ﷺ بشخصه بين المؤمنين كان له أعظم الأثر في تنشئة ذلك الجيل الفريد ـ جيل الصحابة رضوان الله عليهم ـ الذي رباه الرسول ﷺ على عينه، والذي بلغ الذروة في قوة الإيمان ورسوخه، اقتداء بالرسول ﷺ ، وتأثرا بالمثل الحي أمامهم، الذي تجسد في شخصه الكريم كل ما في القرآن من توجيهات وتعليمات، حتى لتقول عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق الرسول ﷺ : «كان خلقه القرآن» (٣) .

ولكن السياق يُظْهر لنا أن هناك أمرا آخر تقدم على وجود الرسول ﷺ بشخصه الكريم بين المؤمنين . . إنه آيات الله التي تتلى عليهم!

آيات الله المتلوة عليهم هي ركيزة الإيمان الأولى، ووجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم ركيزة إضافية، ولكنها ليست هي الأصل !

والرسول ﷺ ذاهب إلى ربه ذات يوم :

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (٤) .

ولكن العنصر الدائم المصاحب لهذه الأمة في مسيرتها هو آيات الله . . هو القرآن المنزل عليهم . ومن ثم يقول الله لهم . ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ ثم يقول لهم : ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ .

آيات الله هي منبع الإيمان . وهي الحصن الحصين الذي يحمي المسلمين من كيد الأعداء حين يتمسكون بها ويعملون بمقتضاها :

---

(١) سورة البقرة ١٢٠ .
(٢) سورة البقرة ١٠٩
(٣) أخرجه أحمد .
(٤) سورة الزمر : ٣٠

﴿إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١).

(٧) ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾(٢).

هؤلاء قوم من الكفار الذين حل بهم عقاب من الله في الدنيا يقول الله عنهم:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾(٣).

أي أنهم تركوا مساكنهم خوفا وهلعا من مصيبة حلت بهم: رجفة أو صيحة أو زلزال عنيف، أو ما يكون من الوسائل التي يرسلها الله علي الكفار عقابا لهم على كفرهم.. والله يوجه لهم القول، فيقول لهم: ﴿لا تَرْكُضُوا﴾ ويتوقع الإنسان أن يقول الله لهم: ارجعوا إلى مساكنكم التي ركضتم منها خوفا وهلعا، فسوف تسألون عن كفركم وجرائمكم..

ولكن السياق يخبرنا بشيء آخر غير المساكن.. قبل المساكن.. يطلب منهم الرجوع إليه من باب السخرية بهم والتبكيت لهم: إنه ﴿مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾!

﴿ وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾، فذلك هو الذي جعل الله يسلط عليكم عقابه، وهو الذي يؤدي بكم إلى الهلاك.

تلك نماذج من نوع خاص من التوجيهات..

دروس تربوية، يبرز الدرس فيها من خلال تقديم كلمة واحدة في السياق.

* * *

وتعالوا نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر..

إن القرآن حافل بقصص الأنبياء.. ترد في سور شتى ولأغراض شتى. ولنأخذ نموذجًا منها ما جاء في سورة الأعراف:

---

(١) سورة آل عمران ١٢٠.　(٢) سورة الأنبياء ١٣.
(٣) سورة الأنبياء ١١، ١٢.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي
ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا
وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا
تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ
(٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ
وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) وَإِلَىٰ ثَمُودَ
أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ
اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)
وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا
وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ
وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ
الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي
وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ

﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (1).

واضح من السياق جملة أمور . .

فالرسل جميعا أرسلوا إلى أقوامهم بكلمة واحدة، وقضية واحدة: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . .

هذه هي قضية الرسل جميعا، وهذه هي قضية الوجود كله . . قضية الإله الواحد الذي لا إله غيره، والذي لا ينبغي أن يعبد غيره . .

وقد أسلفنا أن الرسل لم يرسلوا ليقولوا للناس إن هناك إلها، فالفطرة تدرك ذلك من غير إرسال رسول :

---

(١) سورة الأعراف : ٥٩ ــ ٩٣.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدم مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[1] .

ولا أرسل الرسل ليقولوا للناس اعبدوا إلهكم . . فالفطرة تتجه إلى عبادة الإله الذي تؤمن به من غير إرسال رسول ، لأن الدين فطرة ، والعبادة للإله مركوزة في الفطرة .

إنما أرسل الرسل جميعا ليقولوا : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ .

إنها قضية التوحيد . . وليست قضية الإقرار بوجود إله .

والضلالة الكبرى التي وقعت فيها البشرية في تاريخها الطويل هي ضلالة الشرك ، وليست ضلالة إنكار وجود الله ، باستثناء الجاهلية المعاصرة التي أغواها «شعب الله المختار»[2] !

ثم كان مع تلك الضلالة الكبرى ضلالات موازية ، سواء في تصور الإله على غير حقيقته ، أو إنكار الوحي المنزل من الله على رسله ، أو إنكار البعث والحساب ، أو اتباع غير ما أنزل الله . .

وكلها ضلالات يقع فيها البشر في جاهليتهم ، فيرسل الله لهم الرسل ليهتدوا إلى الحق ، ويعبدوا الله وحده ، ويصدقوا ما جاءت به رسلهم ، ويتبعوا ما أنزل الله . .

كما يتضح من السياق أن الأقوام كلهم كذبوا رسلهم ، وأبوا أن ينقادوا لهم ، وطالبوهم ببينة تثبت دعواهم أنهم رسل من عند الله ، فلما جاءتهم البينات أصروا على كفرهم وتكذيبهم وأبوا الانقياد!

إنها إذن ليست مرة عارضة في تاريخ البشرية . . إنها قصة مكرورة منتظمة الحدوث :

---

(١) سورة الأعراف . ١٧٢ .

(٢) اقرأ إن شئت فصل «دور اليهود في إفساد أوربا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة»

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[١].

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٢].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾[٣].

* * *

الدروس التي تحملها قصص الأنبياء هي دروس موجهة للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ولكنها موجهة إلى الدعاة خاصة، الذين هم ورثة الأنبياء، فإن لهم فيها عبرا قد لا يدركها غيرهم، أو لا يعيرها التفاتا..

الدرس الأول أن أهم ما تقوم عليه حياة الناس هو العقيدة..

إن الطعام والشراب وغيره من ألوان النشاط الحسّي لهي أمور يشترك فيها الإنسان والحيوان، وإن كان الإنسان ينبغي أن يمارسها على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان [٤]!

ولكن الإنسان ـ الذي كرمه ربه ـ لم يكن قط مجرد قبضة الطين. إنما هو صار إنسانا بالنفخة العلوية فيه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٥].

فالنفخة العلوية من روح الله هي التي جعلته إنسانا، وهي التي منحته الوعي والإرادة والحرية ـ عناصر الإنسان الأصيلة ـ وهي التي جعلته موضع التكريم الإلهي، وأسجدت له الملائكة:

---

(١) سورة الذاريات: ٥٢، ٥٣. (٢) سورة يس ٣٠.
(٣) سورة يونس ٧٤
(٤) راجع إن شئت كتاب «دراسات في النفس الإنسانية»
(٥) سورة ص ٧١، ٧٢.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(1) .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(2) .

وأول مقتضياتها عبادة الله على بصيرة ووعي وإرادة . . وذلك هو الدين القيم المركوز في الفطرة . . الفطرة السوية :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(3) .

ولكن قوما من البشر تفسد فطرتهم، فينطفئ في أرواحهم ذلك النور الذي تبعثه النفخة العلوية في روح الإنسان، فيفقدون إنسانيتهم، ويصبحون كالأنعام، بل هم أضل :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(4) .

ومن ثم ينقسم الناس تجاه الحقيقةالكبرى، حقيقة الألوهية، إلى قسمين اثنين :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ . . .﴾ (5) .

منهم من يعبد الله، ومنهم من يعبد الشيطان . . وكل عبادة لغير الله هي من عبادة الشيطان؛ لأنه هو الذي يوحي بها للناس :

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (6) .

ويرسل الله الرسل لهداية الناس إلى ربهم، فيستجيب الذين يسمعون .

---

(1) سورة الإسراء : ٧٠.
(2) سورة البقرة . ٣٤.
(3) سورة الروم : ٣٠
(4) سورة الأعراف : ١٧٩ .
(5) سورة التغابن . ٢.
(6) سورة يس : ٦٠، ٦١ .

يستجيب أصحاب الفطر السلمية، ويقف مطموسو البصيرة الذين انتكست فطرتهم يعاندون الدين ويعادون المرسلين.

ذلك هو الدرس الأول..

والدرس الثاني أن أول من يتصدى لدعوة الرسل هم «الملأ».. ثم تتبعهم «الجماهير» الضالة المضلّلة!

ولم تتخلف هذه الظاهرة مع أي رسول أرسل إلى الناس!

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٢].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ..﴾[٣]. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[٤].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ..﴾[٥]. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[٦].

إن الملأ لا يصدهم عن الهدى مجرد انطماس البصيرة، ولا مجرد اتباع عرف الآباء والأجداد، ولا مجرد النفور من شيء لم يألفوه.. فهذه كلها قد تفعل فعلها مع «الجماهير» فتصدها عن الهدى بادئ ذي بدء إلا من فتح الله بصيرته. أما الملأ فقد يشاركون الجماهير في ضلالاتهم، ولكن لهم سببا خاصا بهم، يجعلهم يقفون

---

(١) سورة الأعراف: ٥٩، ٦٠.
(٢) سورة الأعراف. ٦٥، ٦٦
(٣) سورة الأعراف· ٧٣.
(٤) سورة الأعراف. ٧٥، ٧٦.
(٥) سورة الأعراف: ٨٥.
(٦) سورة الأعراف· ٨٨

ضد دعوة لا إله إلا الله، ويتصدون لها أول المتصدين.. إنها قضية الولاء.. قضية السلطان! فهم يريدون الولاء والسلطة لهم، بينما لا إله إلا الله تجعل الولاء والسلطان لله.. ودون ذلك وتندق الأعناق! إن لهم سلطة على «الجماهير» ـ على الذين استضعفوا ـ يوجهونهم كما شاءوا، ويشرعون لهم ما شاءوا، وتطيعهم هذه الجماهير المستضعفة فيتألهون عليها، ويشعرون بنشوة السلطان القاهر عليها، فتجيء دعوة لا إله إلا الله، فترد الألوهية لله وحده، والسلطان له وحده، والطاعة المطلقة له وحده، وهم لا طاعة لهم إلا فيما يطيعون هم ربهم فيه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1].

ومعنى ذلك سلبهم أعز ما يعتزون به، وأشد ما يبعث الكبرياء في نفوسهم، وتنتشي له أحاسيسهم.. فيقفون للدعوة أول الواقفين، ويصرون ويعاندون..

والدرس الثالث أن طلبهم الآية التي تثبت صدق ما يدعيه الرسول من كونه مرسلاً من عند الله، لا ينبع في الحقيقة من الرغبة في التثبت والاستيثاق قبل اتخاذ القرار.. فلو أنه كان كذلك لكان المسلك الطبيعي والسوي أن يؤمنوا حين تجيئهم الآية.. إنما هو مجرد تكأة للصد وعدم الانقياد.. فإذا جاءت الآية التي علقوا إيمانهم عليها زادوا عنادا وإصرارا وصدا واستكبارا ليغطوا على الحرج الذي يحسونه في دخيلة أنفسهم من وضوح الحق وانكشاف الباطل وأنه لا يستند على شيء حقيقي..

والدرس الرابع أن الملأ لا يكتفون تجاه دعوة لا إله إلا الله بالصد والتكذيب، والتشهير والتشويه، إنما يتعدون ذلك إلى الإيذاء! ويشتد الإيذاء كلما استجاب للدعوة نفر من «المستضعفين».. لأن معنى استجابتهم أنهم خرجوا على ألوهيتهم المزعومة، واستقلوا بكيانهم عن سلطانهم، أي لم يعودوا خاضعين ـ نفسيا على الأقل ـ لسيطرتهم! وأي شيء يمكن أن يتقبل إلا هذا! حتى وإن أعلن الدعاة المسالمة، وطلبوا المهادنة:

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . . .﴾(١) .

والدرس الخامس أن الرسل وأتباعهم الذين آمنوا لا يتخلون عن الحق بسبب ما يتعرضون له من الإيذاء، لأن الحق أغلى عليهم حتى من أنفسهم؛ وتعلقهم بربهم، حبا وخشية، أقوى من كل عوامل الضغط والإرهاب الذي يواجههم، ولأنهم ـ بعمق إيمانهم ـ يدركون أن الأمر بيد الله وليس بيد البشر، مهما بدا في ظاهر الأمر من جبروتهم، فيتوكلون عليه وحده، ويتوجهون إليه وحده بطلب النجاة من قبضة الأعداء :

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٢) .

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣) .

والدرس السادس أن الباطل ينتفش فترة من الوقت ـ بقدر من الله ـ ثم يأتي نصر الله، فيزهق الباطل، وينتصر الحق ويثبت ويتمكن :

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (٤) .

والدرس السابع أن الفترة التي ينتفش فيها الباطل ـ بقدر من الله ـ هي فترة التمحيص للمؤمنين، التي تسبق محق الكافرين، ولها حكمتها عند الله :

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾(٥) .

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(٦) .

وليس عن قلًى من الله للذين آمنوا به يتركهم يبتلون ويعذبون ويضطهدون على يد الكفار . ولكن حتى تصفو نفوسهم من كدرها، وتتعلق بالله وحده، وتتوكل

(١) سورة الأعراف : ٨٧، ٨٨ .
(٢) سورة إبراهيم : ١٢ .
(٣) سورة الأنعام : ٣٤
(٤) سورة الرعد : ١٧ .
(٥) سورة آل عمران : ١٤١ .
(٦) سورة العنكبوت . ٢، ٣

عليه وحده، وتتجرد له. فإذا علم الله من نفوسهم أنها خلصت له، ولم يعد حب الدنيا يشغلهم عن ربهم وعبادتهم وآخرتهم، مكّن لهم وهم مهيئون نفسيا للتمكين، بمعنى أن التمكين لا يطغيهم في الأرض لأنهم باعوا الحياة الدنيا، ولا يفسد مشاعرهم لأنهم تجردوا لله، وتعلقوا به حبا ورهبة: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[١]. فينشرون العدل والسلام في الأرض، ويقومون بحراسة الحق: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[٢].

والدروس لا تحصى . .

ولكنا نختار درسا معينا نختم به حديثنا في هذه الفقرة . .

إنه قصة فرعون . .

وربما كانت قصة فرعون أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم، فقد ذكر في القرآن أربعا وسبعين مرة[٣]. وفرعون من أشد الطغاة طغيانا في التاريخ . . ويكفي أن نعرف من جبروته أن موسى عليه السلام حين أمره ربه أن يذهب إلى فرعون ليطلب منه إطلاق سراح بني إسرائيل، أدركه الخوف، وطلب من ربه أن يعينه بأخيه هارون، فآتاه الله ما سأل، وأرسل معه أخاه هارون، وأمرهما أن يذهبا إلى فرعون، فأعلنا ـ معًا ـ خوفهما من المواجهة!

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[٤] . . . ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٥].

---

(١) سورة الإسراء: ٥٧. (٢) سورة الحج ٤١.

(٣) انظر المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي.

(٤) سورة طه: ٢٤ـ٣٦. (٥) سورة طه. ٤٢ـ٤٦.

فماذا كان من أمر السحرة حين آمنوا، فهددهم فرعون بأنه سيقتّلهم ويصلبهم في جذوع النخل:

﴿.. فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾(١).

كيف استعلى الإيمان في قلوبهم على كل متاع الأرض، وكل مخاوف الأرض؟!

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(٢).

إنها الروعة التي تجلّ عن التعبير!

* * *

وبهذه المناسبة، نقول إن هناك درسا للدعاة خاصة في قصة سحرة فرعون، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الكهف.. فهؤلاء آمنوا، ثم ذهبوا ضحايا الظلم والطغيان، ولم يمكنوا في الأرض..

والقصص في القرآن لا يرد لمجرد تسجيل الوقائع التاريخية، وإنما للعبرة..

فما العبرة من إيراد هذه القصص الثلاث في وسط الحشد الضخم من قصص الأنبياء الذين مكن الله لهم، وأنجاهم من أعدائهم، ودمر على الطغاة بشتى الوسائل:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٣).

العبرة ـ للدعاة خاصة ـ أنه ليس من الضروري في كل مرة أن يمكن الله لأشخاص المؤمنين في أعمارهم الدنيوية المحدودة.. ولكنه ـ في كل مرة ـ يمكنّ للدعوة!

---

(١) سورة طه. ٧١. (٢) سورة طه: ٧٢، ٧٣.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٠.

إن هؤلاء الذين قضى عليهم الطغيان فلم يمكّنوا في الأرض، ولم يروا النصر متحققا لأشخاصهم في عمرهم المحدود.. هؤلاء لم يذهبوا.. إنهم زاد ضخم لدعوة الحق.. زاد باق في الذكر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. زاد يملأ قلوبا من قلوب المؤمنين جيلًا وراء جيل، فيستصغرون الحياة الدنيا، ويرتفعون بإيمانهم على كل متاع الأرض، وعلى كل مخاوف الأرض، فيقفون بشجاعة وصبر وإيمان في وجه الباطل، ويضحون بأنفسهم لتكون كلمة الله هي العليا..

كلا! لم يذهبوا! حتى في الأرض لم يذهبوا.. فضلا عن جنات الخلد في الآخرة:

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (٢).

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

* * *

يلفت النظر في قصص الأقوام السابقين في كتاب الله ذلك الحديث المطول المفصل عن بني إسرائيل.

وفي قصصهم دروس وعبر..

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

إن بني إسرائيل أمة اختارها الله، وأنزل إليها كتابا مفصلا، ومكّن لها ـ بكتابها ـ فترة من الزمن في الأرض، فقام لها ملك، وامتد لها سلطان، وأفاض الله عليها من نعمه.. ثم..؟

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٩.
(٢) سورة البروج: ١٠، ١١.
(٣) سورة آل عمران. ١٤٠.
(٤) سورة يوسف: ١١١

ثم كفرت بأنعم الله، وعتت عن أمر ربها، وأفسدت في الأرض، وضلت وأضلت، فنزع الله منها العهد، ومنحه لأمة أخرى. .

وهذه الأمة ـ أمة محمد ﷺ ـ اختارها الله، وأنزل إليها كتابا مفصلا، ومكّن لها ـ بكتابها ـ فترة من الزمن في الأرض. . فهي تُحَذّر ـ من خلال قصة بني إسرائيل المعروضة في الكتاب المنزل عليها ـ من أن تفعل مثلما فعلت الأمة الأولى فينزع منها العهد. . وسنة الله لا تحابي. .

ومما يؤسف له أن الأمة الثانية انحرفت ـ رغم التحذير ـ وإن لم تصل قط إلى ما وصلت إليه الأمة الأولى، وتحقق فيها ما أخبر عنه رسولها ﷺ. «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه. قالوا: يارسول الله، اليهود والنصارى؟! قال: فمن؟!»[1].

ونأخذ بالذات ذلك الوصف الذي أشرنا إليه من قبل في فصل «الإعجاز البياني»:

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[2].

فماذا فعلت الأمة الثانية بكتابها الذي مكنها الله به قرونا ممتدة في التاريخ؟

لقد تحول في حس كثير من أبنائها في جيل الغثاء هذا إلى تراث. .

تراث من عهد الآباء والأجداد ـ كانوا ـ يطبقونه في واقع حياتهم ويلتزمون به، فخلف من بعدهم خلف يحفظونه تراثا ولكن لا يعملون به، ولا يطبقونه في واقع حياتهم، ولا يعدونه مصدر التلقي ولا منهج الحياة. إنما مصدر التلقي عندهم هو «الحضارة الغربية» ومنهج الحياة هو ما يسير عليه الغرب في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر. . وليتهم يجيدون تقليد الغرب في إيجابياته. . لكنهم يقلدونه في سلبياته، ويدخلون مثله في جحر الضب!

---

(١) أخرجه مسلم.　　　(٢) سورة الأعراف. ١٦٩.

وتشغلهم الحياة الدنيا فيأخذون عرض هذا الأدنى، ثم يقولون : سيغفر لنا! «أمة محمد بخير»!! «يابختنا بالنبي»!!

وعلى أي أساس يتوقعون الغفران؟ على أساس ما لديهم من «التراث»! فهم «أمة القران»، وهم «حفاظ القرآن» وهم قراؤه!

أما العمل بمقتضاه، فقضية أخرى.. وربك غفور رحيم!

نعم.. إن الله لا يترك هذه الأمة تنفلت من دينها كما تفلتت أمم سابقة :

«يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها» (١).

ولكن أين هي اليوم من رسالتها التي أخرجها الله لتؤديها؟ :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢).

ما أحوج الأمة إلى أن تعي الدرس.. والدروس كلها في كتاب الله..

* * *

ولنغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر..

ولنتأمل حديث القرآن عن السنن الربانية التي يجريها الله في حياة البشر، والتي قال عنها سبحانه إنها لا تتبدل ولا تتحول، ولا تحابي أحدا من البشر :

﴿.... فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾(٣).

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٤).

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾(٥).

---

(١) رواه أبو داود والحاكم في المستدرك

(٢) سورة البقرة : ١٤٣.

(٣) سورة فاطر : ٤٣

(٤) سورة البقرة : ١٢٤.

(٥) سورة النساء : ١٢٣.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[1] .

ونسأل بادئ ذي بدء : ما علاقة الحديث عن السنن الربانية بمنهج التربية القرآني ، وبالإعجاز التربوي في القرآن؟

إن الله لايورد الحديث عن السنن في كتابه المنزل لمجرد إثبات الحقائق ، وإنما لهدف تربوي وراء ذلك . ولقد تحدثنا من قبل عن إجابة القرآن الكريم عن أسئلة الفطرة التي تلح عليها بوعي أو بغير وعي : من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ تلك الأسئلة التي إن لم تتلق إجابة واضحة محددة بعثت القلق والاضطراب والحيرة في النفوس ، وأدت ـ في كثير من جاهليات الأرض ـ إلى ضلال كبير . . أوضحه ما تعانيه الجاهلية المعاصرة من القلق والأمراض النفسية والعصبية والجنون والانتحار ، وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة . .

وهنا نقول إن القرآن لم يكتف بإعطاء «رءوس المسائل» في «دليل الرحلة» التي يقوم بها البشر على الأرض ، بإعطاء إجابة واضحة عن أسئلة الفطرة ، بل مضى شوطا آخر في «البيان» فبيّن للبشر خطوطا أدق في ذلك الدليل ، فبين لهم الطرق والمسالك ، وبين لهم ما يؤدي إليه كل طريق يسلكه السالكون ، حتى يعرفوا من مبدإ الطريق ما الذي تنتهي إليه نهايته ، وماذا يجدون في أثنائه فيختاروا لأنفسهم على بصيرة ، ولا يكون أمرهم عليهم غمة وهم يختارون الطريق ، ويتحملوا مسئوليتهم كاملة عن اختياره :

﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾[2] .

﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[3] .

و«السنن» هي تلك الطرق . . التي يؤدي كل منها إلى نهاية محددة في الحياة الدنيا ، تترتب عليها نتيجة محددة في الآخرة .

---

(١) سورة المائدة . ١٨ .
(٢) سورة القيامة : ١٤ ، ١٥ .
(٣) سورة النساء . ١٦٥ .

ومن رحمة الله بالبشر أن ثبّت لهم هذه السنن، وإلا فلو كانت غير ثابتة فأي ارتباك يمكن أن يصيب البشر في رحلتهم، حين يسلكون طريقا قيل لهم إنه يؤدي إلى غاية معينة، فيجدون أنفسهم إزاء غاية أخرى غير التي اختاروا الطريق من أجلها؟

ومشيئة الله طليقة لا قيد عليها، يرتب ما شاء من النتائج على ما شاء من الأسباب، ولكنه رحمة منه بعباده، وتيسيراً لهم في رحلتهم في الحياة الدنيا، قد ثبّت لهم سننه ليسلكوها على بصيرة، وليحملوا مسئوليتهم كذلك كاملة يوم القيامة.

ومن رحمته كذلك، أن بيّن لهم هذه السنن في كتابه المنزل، فلم يرد لهم أن يضيعوا الجهد في التعرف على تلك السنن، حتى إذا عرفوها كان جهدهم قد أنهك في المحاولة والخطأ، ويكون الأوان قد فات! بل أراد لهم أن يكون جهدهم مبذولا في الحركة المثمرة في الطرق التي وضحها لهم وبين لهم عواقبها، حتى يفوزوا بأفضل النتائج في عمرهم المحدود.

ولم يُخْفِ الله عنهم مشقة الطريق، حين تكون هناك مشقة في الطريق! بل بينها لهم كاملة من أول الطريق! بل بيَّن لهم أكثر من ذلك أن طريق الإيمان طريق محفوف بالمخاطر والمتاعب والتضحيات، وأن الطريق الآخر حافل بالمغريات! ولكنه وضح لهم نهاية هذا الطريق وذاك! ودعاهم إلى اقتحام الطريق الأول، والصبر على عقباته وتضحياته، وحذرهم من سلوك الطريق الآخر المليء بالمغريات. وقال لهم إن أمامهم طريقين: طريقا وعراً شاقا ينتهي بجنة الخلد، وطريقا محفوفا بالمغريات واللذائذ ينتهي إلى النار.. ثم تركهم يختارون!

وليست القضية قضية فرد يسلك هنا أو يسلك هناك.. إنما هي قضية الجموع البشرية.. فالسنن المعروضة لا تخص الفرد وحده، إنما تشمل الجميع.. وتبين مصائر الأمم كما تبين مصائر الأفراد. ومن ثم، فهي مناهج تربوية تربي كل فرد على حدة، وفي الوقت ذاته تربى الجموع، فتكون جموعا مهتدية إذا التزمت، أو جموعا ضالة إذا تنكبت الصراط المستقيم.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [1].

---

(١) سورة الأنعام: ١٣٢.

بل إن الله ـ رحمة منه بعباده ـ لم يكتف ببيان «رءوس المسائل» في كتابه المنزل، ولا بيان السنن التي يجري قدره من خلالها، بل عرض عليهم مصداق هذه السنن من خلال التاريخ، ووجههم أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف انطبقت تلك السنن في عالم الواقع خلال التاريخ.

والقصص في القرآن يؤدي هذه المهمة.

ففضلا عن الجانب الجمالي في السرد القصصي، الذي أشرنا إلى بعض معالمه في فصل الإعجاز البياني، وما له من تأثير في الوجدان، فإن له هدفا تربويا واضحا، هو بيان التطبيق الواقعي للسنن الربانية في واقع الحياة البشرية. وكثير من هذه السنن لا يستوعبها عمر الفرد المحدود، فقد تستغرق أجيالا عدة من حياة البشر حتى تتحقق بتمامها. لذلك يجيء ذكرها مفصلا في كتاب الله، وتعرض وقائعها ليرى الناس أنها سنن حقيقية فاعلة في عالم الواقع، وليعلموا أنها متواترة لا تتخلف ولا تتغير ولا تتبدل، وليعتبروا بها فلا يسيروا في اتجاه مضاد لها.

وهذا ينطبق على كل القصص الواردة في كتاب الله بدءا من قصة خلق آدم، وقصة آدم مع الشيطان، التي يقول عنها رب العالمين إنها ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾، لأنها هي رأس القضية كلها بالنسبة للإنسان:

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١).

---

(١) سورة ص ٦٧ ـ ٨٥.

كما ينطبق على قصص الأنبياء مع أقوامهم، التي هي مصداق ما قدره وقرره رب العالمين في عباده، والتي وقعت أحداثها بالفعل في واقع الأرض ، والتي هي سارية المفعول إلى يوم القيامة: فالفائزون في الدنيا والآخرة هم الذين اعتبروا بالدرس ووعوه، وعملوا بمقتضاه، والخاسرون هم الذين غرتهم الأماني، وغرتهم الحياة الدنيا، فاستمعوا لغواية الشيطان، فهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ، كما جاء وصفهم في الآية الثانية عشرة من سورة «محمد».

والآن فلنأخذ في الحديث عن بعض السنن الواردة في كتاب الله.

هناك سنن تتعلق بالتمكين في الأرض، ويبين الله لنا منذ البدء أن التمكين ليس خاصا بفئة دون فئة، فالمؤمنون يمكّنون ، والكفار يمكّنون:

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾(1).

ولكن هؤلاء أو هؤلاء لا يمكّنون بغير جهد يبذلونه ، فقد كتب على الإنسان أن يكدح لينال ما يريد:

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾(2).

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(3).

فالأسباب التي لابد من اتخاذها للحصول على التمكين واحدة بالنسبة لهؤلاء وهؤلاء..

ولكن تفترق بعد ذلك الطريق.. فهناك نوعان من التمكين: تمكين الرضا، وتمكين الاستدراج، الأول للمؤمنين والآخر للكفار، ولكل منهما سمات في واقع الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فهما على طرفي نقيض.

يقول تعالى عن تمكين الاستدراج:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(4).

---

(1) سورة الإسراء: ٢٠.
(2) سورة الانشقاق: ٦.
(3) سورة البلد: ٤.
(4) سورة الأعراف: ١٨٢، ١٨٣.

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

بل إن الله قد يزيد لهم في التمكين ـ استدراجا لهم ـ إذا أوغلوا في الكفر، ولكن إلى حين:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣).

أبواب كل شيء من زينة الحياة الدنيا وزخرفها الحسي والمادي.. ولكنّ هناك بابين من أبواب التمكين لا يعطيهما الله للكفار، وإنما يختص بهما المؤمنين، وهما الفارق الرئيسي بين تمكين الرضا وتمكين الاستدراج:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ..﴾ (٤).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٥).

البركة والطمأنينة بابان من أبواب التمكين لا يحصل عليهما الكفار في الحياة الدنيا، برغم كل الأبواب المفتحة عليهم، من القوة السياسية والحربية والتكنولوجية والرخاء المادي.. ومن كان في شك من ذلك فلينظر إلى واقع الغرب اليوم، الذي وصل في قوته المادية إلى مستوى لم يسبق للبشرية أن وصلت إليه، ومع ذلك فهو يعج بالشقاء والكآبة التي توصل بعض الناس إلى الانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية وتسلم بعضهم إلى الخمر والمخدرات، وتدفع آخرين إلى الجريمة..

كلا! لا بركة ولا طمأنينة..

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٨.
(٢) سورة هود ١٥، ١٦.
(٣) سورة الأنعام: ٤٤، ٤٥.
(٤) سورة الأعراف: ٩٦.
(٥) سورة الرعد. ٢٨

بينما تمكين الرضا فيه كل أبواب القوة، مضافًا إليها الطمأنينة الروحية المنبثقة من ذكر الله، والبركة التي تحيط المجتمع المسلم من فيض الرحمن :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (١)

فقد تكفل الله لهم بالاستخلاف والتمكين والتأمين، فضلا عن البركة والطمأنينة، حين يعبدونه حق عبادته، ويقومون بمقتضيات دينهم وتكاليفه على الوجه الصحيح . .

ومن ثم، فإن الذين ينبذون دينهم ويقولون إنهم ينبذونه ليحصلوا على القوة والتمكين واهمون في دعواهم ومموهون. فقد جرفتهم أهواؤهم وشهواتهم، ولكنهم يتظاهرون بالعقلانية، وبأن عقلانيتهم هي التي تدفعهم إلى نبذ الدين! كلا! لقد كرهوا ما أنزل الله، ثم زينوا كفرهم بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان.

إذا كان الغرب قد نبذ دينه ـ لأسباب كامنة في ذلك الدين وفي رجاله وكنيسته ـ ثم حصل على القوة والتمكين، فذلك تحقيق للسنة التي يعامل بها الكفار :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٢).

أما المؤمنون فلا يمكنهم وهم عصاة! لا يمكنهم حتى يعودوا إليه، ويستقيموا على طريقه. . وتاريخهم كله هو مصداق هذه الحقيقة: كلما تمسكوا بدينهم تمكنوا في الأرض. . وكلما تخلخلت قبضتهم من حبل الله المتين جاءهم الأعداء، وعجزوا عن صدهم، وأدركهم الوهن، فذلوا. .

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؟! (٣).

* * *

---

(١) سورة النور ٥٥. (٢) سورة الأنعام. ٤٤.

(٣) سورة محمد. ٢٤.

وهناك سنن لزوال التمكين . .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١) .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(٢)

الترف هو الحمض الأكال الذي يأكل الأفراد والشعوب . . والشعوب بصفة خاصة .

ولأن السنن الاجتماعية بطيئة في تحققها ، وقد تستغرق مئات السنين حتى يتكامل مفعولها ، فإن كثيرا من الطغاة لايدركونها حين لا تتحقق في أعمارهم المحدودة ، فيحسبون أنهم ناجون من آثارها ، أو يقولون من جانب آخر : «أنا ومن بعدي الطوفان!» فيستغرقون في الترف غير ناظرين إلى النتائج . فيقول الله لهم : سيروا في الأرض فانظروا! انظروا كيف كانت مصاير من كان قبلكم . فالتاريخ هو معرض تحقق السنن الاجتماعية الطويلة الأمد ، التي تتجاوز أعمار الأفراد . . ولكن الطغاة ـ خلال التاريخ ـ لا يعتبرون! وكل واحد منهم يظن أنه حالة فريدة غير مسبوقة ، لاتنطبق عليها أحوال السابقين :

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ (٣) .

لذلك يعج التاريخ بأخبار الطغاة!

* * *

ويلحق بسنن زوال التمكين سنة التداول :

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(٤) .

لم تدم قوة في الأرض مهما طال بقاؤها . . وإنما يحدث التغيير دائما ، وتنتقل القوة من مكان إلى مكان ، ومن شعب إلى شعب ، ومن جنس من أجناس البشر إلى جنس آخر .

---

(١) سورة الأنفال : ٥٣ .
(٢) سورة الإسراء · ١٦ .
(٣) سورة إبراهيم . ٤٥ ، ٤٦ .
(٤) سورة آل عمران · ١٤٠ .

وعلى الرغم من أنها سنة من سنن الله، لها حكمتها عنده، فإن لها أسبابها . . فهي لاتحدث اعتباطا. إن الأمم في نشأتها واضمحلالها تمر بأطوار . .

في نشأتها تكون مستوفزة الطاقات، فهي تصارع القوى القائمة لتُثْبِت وجودها، ثم لتُثَبِّت وجودها. والصراع دائما يحفز القوى الكامنة، فتعمل بكل طاقتها . .

ثم تجيء فترة تكون الأمة ممكنة ولكنها خائفة من أعدائها، فتظل يقظة لنفسها وماحولها، فيستمر تمكينها.

ثم تجيء فترة أخرى تطمئن فيها إلى أنها قد أصبحت في مأمن من أعدائها، لأنها بلغت مبلغا من القوة يرهب أعداءها فلا يفكرون في العدوان عليها . .

وفي هذه الفترة يبدأ التراخي، ويبدأ الترهل، ويبدأ الترف، ويبدأ الانحلال الذي يؤدي إلى الضعف، فيطمع الأعداء . .

وحين يصل الترف إلى حب الحياة وكراهية الموت، وكراهية تكاليف الجهاد في الأنفس والأموال، يبدأ الاضمحلال الذي يؤدي إلى الزوال! وتنتقل القوة إلى مولود جديد، يشب ثم يترعرع، حتى تدركه السنَّة في نهاية المطاف . .

وقد التفت ابن خلدون إلى هذه السنَّة وركّز عليها كثيرا، وعنه أخذ توينبي، وشبه الأمة بالشجرة، تبدأ صغيرة نابتة، ثم تقوى وتتمكن، ثم تشيخ فتموت، وقال إن تاريخ الأمم كتاريخ الأفراد يبدأ بالميلاد وينتهي بالموت.

ولكنّا حتى لو افترضنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون، وتابعه توينبي، فنحن نتساءل: هل الشيخوخة التي تؤدى إلى الموت هي السنة، أم هي الترف الذي يؤدي إلى الانحلال؟

ونسأل سؤالا آخر: هل الأمة الإسلامية تنطبق عليها تلك السنة المفترضة: سنة الشيخوخة التي تؤدي إلى الموت؟

نحسب ـ والله أعلم ـ أن الله لم يكتب هذه السنة ـ إن كانت سنة حقا ـ على الأمة الإسلامية في مجموعها. فقد شاخت الدولة الأموية وذهبت، وشاخت الدولة العباسية وذهبت، وشاخت دولة المسلمين في الأندلس وذهبت، وشاخت

الدولة العثمانية وذهبت حين أصيبت كلها بالداء القاتل، داء الترف، ولكن الأمة الإسلامية لم تذهب!

والصحوة الحالية دليل . .

والمستقبل مفعم بآمال العودة إلى التمكين، وخاصة حين تقع المعركة التي أخبر عنها الرسولﷺ ، التي يقول فيها الحجر والشجر: يامسلم ياعبد الله، هذا من خلفي يهودي فتعال فاقتله . .

وقد يكون مفتاح الأمر هو قول الرسولﷺ : « يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها» (١)

وإذا تجدد الدين تجددت القوة وعاد التمكين تحقيقا لوعد الله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (٢).

* * *

من السنن التي يرد ذكرها كثيرا في كتاب الله سنة الابتلاء:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٣).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (٤).

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٥).

والابتلاء أنواع . . بعضها عام يشمل البشر جميعا، وبعضها يختص بفئة معينة من الناس.

والابتلاء العام الذي يشمل البشر جميعا قد أشرنا إليه من قبل، ولا بأس بالتذكير به هنا مرة أخرى.

---

(١) سبقت الإشارة إليه
(٢) سورة النور ٠ ٥٥.
(٣) سورة الإنسان: ٢
(٤) سورة الكهف ٠ ٧.
(٥) سورة الأنبياء . ٣٥

في فطرة الإنسان رغبة عميقة في الاستمتاع، والأرض مزينة بألوان مختلفة من المتاع. ولكن الله سبحانه وتعالى ـ وهو الحكيم الخبير ـ رسم حدودًا أباح المتاع في داخلها وحرّمه خارجها، وله حكمته في التحليل والتحريم. فهو يحل الطيبات ويحرّم الخبائث، فأباح ما يعلم سبحانه أنه في صالح الإنسان، وحرّم ما يعلم أنه يضره. ولكن الرغبات في نفس الإنسان حادة وعميقة.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١).

والاختبار الذي يوضع الإنسان فيه في كل لحظة من لحظات حياته الواعية المريدة المختارة هو هذا: هل يلتزم في تناوله للمتاع الأرضي بالحدود التي رسمها الله، أم تغلبه شهوته فيتجاوز الحدود؟ وفي كل لحظة تسجل له نقطة في الاختبار، وفي النهاية تعلن النتيجة، فإما إلى الجنة وإما إلى النار.

ذلك هو الاختبار الأكبر الذي خلق الإنسان من أجله، وهو وثيق الصلة بالعبادة التي قال الله إنه لم يخلق الإنسان إلا لها:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (٢).

فالعبادة معناها ـ أو مؤداها ـ طاعة الله فيما أمر به وما نهى عنه. أي ـ بعبارة أخرى ـ الالتزام بالحدود التي حددها الله للمتاع. ومادة الاختبار هي نفس الأمر: هل يعبد الإنسان ربه ـ فيطيعه ـ أم يعبد الشيطان؟

وأداة الشيطان التي يفتن بها الناس عن عبادة ربهم هي تزيين المتاع الزائد عن الحد:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣).

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٤).

---

(١) سورة آل عمران: ١٤
(٢) سورة الذاريات: ٥٦.
(٣) سورة الحجر: ٣٩، ٤٠.
(٤) سورة الأعراف: ١٦، ١٧

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١).

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ . . .﴾ (٢).

ويلاحظ في الآية الأخيرة وصف دقيق للخطوات التي يتبعها الشيطان في غواية الناس، فهو ابتداء يضلهم، فيقودهم إلى الطريق الذي قال لهم الله لا تسلكوه، ويمنيهم أنهم سيجدون بغيتهم (من المتاع) في هذا الطريق، فإذا استسلموا له أخذ يأمرهم أمرًا بمخالفة أمر الله فيطيعونه.

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يحرجهم من رحمته بمجرد هفوة يستجيبون فيها لوسوسات الشيطان:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٣).

وحتى مرتكب الكبيرة لا يخلده في النار، إنما المخلدون في النار هم الذين يكفرون بآيات الله، والذين يشركون به، والذين يستحلون ما حرم الله، ويشرعون بغير ما أنزل الله.

إذا كان هذا هو الاختبار العام الذي يدخل فيه الناس جميعا، فينجح من هداه الله، ويرسب من وقع في الضلال، فهناك أنواع أخرى من الاختبار - أو الابتلاء - لا تقع لكل الناس، إنما فئات وفئات . .

فبعض الناس يبتلون ببسط الرزق، وبعضهم يبتلون بقدر أرزاقهم.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا . .﴾ ! (٤).

---

(١) سورة الإسراء: ٦٣-٦٤ (٢) سورة النساء ١١٨-١١٩

(٣) سورة آل عمران: ١٣٥-١٣٦. (٤) سورة الفجر: ١٥-١٧

كلا ! ليست القضية كذلك! ليست بسط الرزق أو تقديره . . إنها قضية الابتلاء ببسط الرزق، أو الابتلاء بتقديره ! أي اختبار سلوك الإنسان حين يبسط له الله في الرزق . . كيف يتصرف؟ وحين يقدر له رزقه كيف يتصرف؟! وهو في الحالين موضع اختبار . .

فأما الذي بسط الله له في الرزق، فإن شكر النعمة، وأعطى حق المال فلم يبخل به، ولم يسرف في إنفاقه، ولم ينفقه في سرف ولا ترف ولا مخيلة، فقد نجح في الاختبار، وأما غير ذلك :

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [1] . أولئك راسبون!

وأما الذي قدر الله عليه رزقه فإن صبر وحمد الله على ما أعطى، وسأل الله من فضله، ولم يلجأ إلى وسيلة حرام يزيد بها ماله، فقد نجح في الاختبار . . وأما إن سخط، وقال ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ ولم يكرمني كما أكرم غيري وأنا أحق بفضل الله من غيري . . فهذا من الراسبين!

وهناك ابتلاء بفضل خاص يعطيه الله فردا أو جماعة أو أمة، لينظر كيف يفعلون. كما قال سليمان عليه السلام : ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [2] .

وكما قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [3] . وكما قال الله عن بني إسرائيل : ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾ [4] .

وهناك ابتلاء لكشف المؤمن من المنافق، وتصفية الصف من المنافقين :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [5] .

---

(١) سورة الفجر : ١٧ ـ ٢٠.
(٢) سورة النمل : ٤٠ .
(٣) سورة الأعراف : ١٢٩ .
(٤) سورة الدخان . ٣٣ .
(٥) سورة العنكبوت : ٢، ٣.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾(١) .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾(٢) .

واختبار الصبر هو أشد درجات الاختبار، وهو في الوقت ذاته أعلى درجات الاختبار :

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(٣) .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(٤) .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٥) .

والأجر على الصبر أعلى الأجر :

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٦) .

* * *

أشرنا من قبل إلى بعض الشروط التي اشترطها الله على المؤمنين لكي يستحقوا تنزل النصر عليهم :

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ (٧) .

---

(١) سورة العنكبوت: ١٠، ١١
(٢) سورة محمد: ٣١.
(٣) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧.
(٤) سورة آل عمران: ١٤٢
(٥) سورة البقرة: ٢١٤.
(٦) سورة الزمر: ١٠
(٧) سورة الأنفال ٦٢-٦٥.

لابد من وجود مؤمنين متآلفة قلوبهم، متجردين لله، مستعدين للقتال . . وثمة شروط أخرى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(1) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(2) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾(3) .

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(4) .

وهناك سنن غالبة ـ أي ليست حتمية ـ يتحقق فيها انتصار الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة :

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(5) .

بينما الفئة الكثيرة قد تُغْلَبُ إذا أعجبتها كثرتها، ونسيت التوكل على الله :

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾(6) .

* * *

وأخيرا نتحدث عن سنة التدافع :

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(7) .

---

(1) سورة الأنفال : ٦٠

(2) سورة الأنفال . ٤٥ .

(3) سورة الأنفال . ١٥ .

(4) سورة آل عمران : ١٤٦ .

(5) سورة البقرة ٢٤٩

(6) سورة التوبة ٢٥، ٢٦ .

(7) سورة البقرة . ٢٥١ .

وبعض الناس يخلط بين هذه السنة وبين ما يسمى «صراع البقاء» الذي أشار إليه داروِن، وقال فيه «البقاءللأنسب» "Survival for the fittest" فحرفها من حرّفها إلى «البقاء للأصلح». ثم زعم الزاعمون من الغرب أنهم هم الأولى بالبقاء، لأنهم هم الأصلح!

فداروِن أولا لم يتحدث قط عن «القيم»! ولم يذكر الصلاح بالمعنى المتعارف عليه. إنما قال إنه حين تحدث تغيرات جيولوجية فإن الكائنات التي لا يتناسب تركيبها مع الأحوال الحادثة تنقرض (كما انقرض الديناصور) وتبقى الكائنات التي يتناسب تركيبها ـ أو لا تتأثر ـ مع الأحوال الحادثة، ولا صلة لهذا برقي الكائن أو عدم رقيه في سلم التطور. فإن الديناصور الذي انقرض كان أرقى بما لا يقاس من الصرصار، ومع ذلك انقرض الديناصور الأرقى وبقي الصرصار! والأمر أولا وأخيراً في عرف داروِن لا صلة له بالصلاح النفسي أو الخلقي، فذلك موضوع لم يتطرق له داروِن قط، وهو من عيوب نظريته، حين زعم أن الإنسان قد انحدر عن أحد القردة العليا، وأهمل تماما الجانب النفسي والأخلاقي والروحي الذي يفرق بين الحيوانات جميعا وبين الإنسان، والتفت إلى التركيب الجسدي وحده..

ولكن بصرف النظر عن كل ذلك، فالسنَّة التي يتحدث عنها القرآن الكريم ليست هي «صراع البقاء» الذي يتحدث عنه الغرب، والذي هو غارق فيه إلى الآذان، والذي يحسبه هو الغاية القصوى من الوجود!

إن صراع البقاء لمجرد البقاء، أو من أجل الغلبة والسيطرة، بغير قيم ولا أخلاق، وهو السائد في عالم اليوم، لهو صراع مدمر، لأنه هو الذي جعل شريعة الغاب هي العملة المتداولة بين الشعوب، القوي يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق.

بينما التدافع الذي قرره الله وجعله من سننه هو تدافع الخير والشر، الذي ينتهي بغلبة الخير والقضاء على الشر. والله يمن على عباده بأنه جعل من سننه أن يوجد في الأرض أهل حق وأهل إيمان وأهل صلاح يدفع الله بهم أهل الباطل، فيزهق الباطل وينتصر الحق، وتخلو الأرض من الفساد أو في القليل ينحسر الفساد فلا يصبح هو

المسيطر . وتلك كانت مهمة الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتؤمن بالله، الأمة الوسط التي تكون شاهدة وقائدة ورائدة لكل البشرية . . وإن غياب هذه الأمة عن الساحة لهو الكارثة الكبرى التي أصابت البشرية بما أصابها من فشو الفساد في الأرض، وفشو الظلم والاستبداد وصنوف الانحراف، ويكفي منه السيطرة العالمية لليهود، والعولمة التي تريد أن تفرض الظلم الاقتصادي والانحلال الخلقي في الأرض . .

كلا! ما أبعد سنة الله التي تهدف إلى حفظ الأرض من الفساد، عن أعراف البشر الضالة في عصر عبادة الشيطان، التي تجعل الفساد هو الغالب في الأرض!

* * *

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن الإعجاز التربوي في كتاب الله الكريم، هو أسماء الله الحسنى .

إن تكرار ورود الأسماء والصفات في القرآن الكريم هو ظاهرة تلفت النظر . . ولقد تحدثنا عن هذه الظاهرة من قبل في الحديث عن الإعجاز الدعوي بوصفها وسيلة مثلى لتعريف الناس بربهم، وترسيخ الإيمان في نفوس المؤمنين، وأشرنا إلى أنها كثيرا ما ترد في ختام الآيات القرآنية بما يناسب المعنى الذي تشمله الآية .

والآن نتكلم عن الظاهرة ذاتها في مجال الإعجازالتربوي . وإن أثرها في المجال التربوي لايقل بحال عن أثرها في المجال العقدي . ولا عجب، فالعقيدة هي الركيزة الأولى والكبرى في منهج التربية الإسلامي . فإذا رسخت العقيدة - في صورتها الصحيحة - فقد أصبحت النفس مهيأة للتلقي من عند الله، والالتزام بماجاء من عند الله، والتخلق بأخلاق الله . وهذه هي التربية الحقة، التي تنشئ «الإنسان الصالح» .

ومن هنا كانت الحكمة في التركيز على الأسماء والصفات، وترديدها في كل مناسبة، سواء كانت المناسبة قصة تروى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، أو توجيها روحيا، أو توجيها أخلاقيا، أو توجيها عقليا، أو توجيها اجتماعيا أو سياسيا أو حربيا أو اقتصاديا . . إلى آخر هذه التوجيهات التي يزخر بها القرآن .

خذ مثلا من سورة الشعراء ، حيث ترد قصص مجموعة من الأنبياء مع أقوامهم . ففي نهاية كل قصة يرد قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1] .

وأحيانا يكون ورود الأسماء والصفات في افتتاح القصة لا في عقبها كما جاء في سورة الحجر : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . .﴾[2] .

وأحيانا يكون في أثناء القصة كما جاء في سورة القصص في أثناء قصة موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3] . وكما جاء في سورة النمل : ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[4] .

وخذ هذا التوجيه : ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5] .

وهذا التوجيه : ﴿ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[6] .

وهذا التوجيه : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[7] .

وهذا التوجيه : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[8] .

---

(١) سورة الشعراء ١٠٣ ، ١٠٤

(٢) سورة الحجر . ٤٩-٥١ .

(٣) سورة القصص ١٦

(٤) سورة النمل ٧٦-٧٨

(٥) سورة البقرة . ٢٨٤

(٦) سورة آل عمران ٢٩ ، ٣٠

(٧) سورة الإنسان : ٣٠ ، ٣١ .

(٨) سورة المائدة . ٣٨ .

وهذا التوجيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

وهذه التوجيهات: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(٢).

وهكذا.. وهكذا.. وهكذا.. عشرات التوجيهات أومثاتها تنتهي بذكر اسم من أسماء الله الحسنى أو صفة من صفاته العلا.. فما المقصود؟

هل أنزلت هذه الأسماء والصفات لنحوّلها إلى جدل ذهني أو قضايا فلسفية كما فعلت الفرق الضالة بتأثير الغزو الفكري اليوناني أو غيره من التأثيرات؟!

إن أسوأ ما فعلته هذه الفرق الناشزة أنها أفرغت الأسماء والصفات من شحنتها التربوية الهائلة، وحولتها قضايا ذهنية باردة لاحيوية فيها ولا حرارة ولاتأثير..

إنما كانت هذه الإشارات المتكررة المتعددة المتنوعة إلى أسماء الله وصفاته لتحيط بالقلب البشري في جميع أحواله، وتربطه بالله برباط وثيق.

فأيا تكن حالة الإنسان، وأيا تكن الظروف التي يمر بها، أو المشاعر التي يعانيها فثم الله. الله هو المدبر. الله هو الفعال لما يريد الله هو الرزاق. الله هو الفتاح الله هو مفرج الكرب. الله هو منزل الغيث. الله هو الباسط القابض. الله هو المحيي المميت. الله هو الضار النافع. الله هو مالك الملك. الله هو مقدر المقادير..

فماذا يفعل الإنسان في أي ظرف يمر به؟ أو أي شعور يلم به؟ أو أي رغبة يرغبها؟ أو أي مخافة يخافها؟ لمن يتوجه؟ ممن يطلب؟ من يستغيث؟ من يرجو؟ من يخاف؟ من يستعين؟ لمن يركن؟ على من يتوكل؟

إنه الله...

ذلك هو الأثر التربوي المطلوب:

---

(١) سورة المائدة ٥٤. (٢) سورة النساء ١٤٧، ١٤٩.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[١]. أي في جميع أحوالهم.

يريد مالا وغنى وسلامة وعافية؟ فمن المغني؟

يريد نصرا على الأعداء؟ فمن الناصر؟

يريد النجاة من شيء يخافه؟ فمن المنجي؟

يريد بنين وحفدة؟ فمن المعطي؟

أينما توجه.. فعند من حاجته؟

وإن الإنسان لينسى..

يغرق أحيانا بين الأسباب فيظنها هي الفاعلة، فيركن إليها وينسى مَنْ وراء الأسباب.

يغرق أحيانا في خوف من طاغوت يفزعه، فيحسب أن بيده الضر والنفع، فيتزلف إليه، على حساب دينه أو كرامته، يبتغي النجاة من طغيان، وينسى أن البلاء حين يقع فهو مقدر له من عند الله، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[٢].

يغرق أحيانا في تطلع إلى أمل يرجوه أو رغبة يريد تحقيقها، فينسى.. ينسى عند من هي؟ وما الطريق السليم إليها؟ فيندفع، فيعصى ربه، ويغفل عن رقابة الرقيب سبحانه، فيقع في الضلال..

وحين يعيش مع القرآن لا ينسى!

لا فرصة له إلى النسيان!

فالتذكير قائم أمامه لا ينقطع، ولا يفتر، يحيط به من كل جانب، فلايدع له فرصة للتفلت أوالنسيان:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٣].

---

(١) سورة آل عمران. ١٩٠، ١٩١.
(٢) سورة البقرة ٤٩
(٣) سورة ق ٣٧

وتلك هي المهمة العظمى التي تؤديها الأسماء والصفات في كتاب الله، والتي أفسدتها الفرق الضالة بما أثارته حولها من جدل ذهني عقيم، لا يسمن ولا يغني من جوع!

* * *

بهذه الوسائل كلها التي ذكرناها تتم التربية في رحاب القرآن.

وبهذه الوسائل كلها أخرج الله «خير أمة أخرجت للناس» من تلك القبائل المتناحرة التي لم تكن لتهتدي لولا أن هداها الله، ولا لتأتلف قلوبها لولا أن ألف بين قلوبها الله.

وبهذه الوسائل كلها تكون تربية الأجيال حين يراد حقا تربية الأجيال على الإسلام.

فأي إعجاز أعظم من هذا الإعجاز؟

لقد كان الإعجاز البياني هدفا مقصودا في ذاته لتحدي المكذبين المنكرين من العرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، وكل مكذب يأتي بعدهم في التاريخ..

ولكنه كان في الوقت ذاته أداة للإعجاز الدعوي، لتجلية عقيدة لا إله إلا الله، وتثبيتها في القلوب.

ولقد كان الإعجاز الدعوي، المشتمل على الإعجاز البياني، هدفا مقصودا في ذاته، لتعريف الناس بربهم الحق، ليعبدوه وحده بلا شريك.

ولكنه كان في الوقت ذاته أداة للإعجاز التربوي لإنشاء «الإنسان الصالح».

وهكذا تلتقي كل مجالات الإعجاز، متعانقة متآلفة لتحقيق الهدف المنشود.

وإن هذا ذاته لهو إعجاز!

من الإعجاز التشريعي

كل رسالة جاءت من عند الله كانت عقيدة وشريعة ومنهاجا للحياة . .

فأما العقيدة، فهي واحدة في الرسالات جميعا ولم تتغير ولم تتطور كما يزعم علم مقارنة الأديان الجاهلي . . فقد كانت منذ أول رسالة إلى آخر رسالة هي «لا إله إلا الله» «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» . إنما الذي تغير وتطور هو عقائد الجاهلية، لأنها صناعة بشرية، تتأثر بأحوال البشر الذين يصنعونها، وتتغير معهم من حال إلى حال . ويجوز أن تكون قد تطورت كما يزعم علم مقارنة الأديان الجاهلي من عبادة الأب، إلى عبادة الطوطم، إلى عبادة قوى الطبيعة، إلى عبادة الأفلاك إلى عبادة الأصنام . . أما العقيدة الصحيحة منذ آدم إلى محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فهي عقيدة التوحيد، تفيء إليها البشرية حينا مع بعثة رسول أو نبي، ثم تنحرف عنها لونا من الانحراف، حتى يأتي رسول آخر يعيد الناس إلى العقيدة الصحيحة، فيعود من اهتدى، ويضل من يضل :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾(١) .

ثم جاء خاتم الرسل ﷺ ليبلغ الكلمة ذاتها«لا إله إلا الله» «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» ، ولكن لا لقوم معينين، بل للبشرية جمعاء :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٢) .

هذا أمر العقيدة . .

---

(١) سورة النحل ٣٦ (٢) سورة الأعراف . ١٥٨ .

أما أمر الشريعة فهو مختلف .

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا . .﴾[1] .

ثم كانت الشريعة الخاتمة التي تمت بها النعمة واكتمل الدين :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[2] .

وقبل أن نتحدث عن بعض جوانب الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم ، نشير إلى قضية مهمة من القضايا التي تنحرف فيها الجاهلية المعاصرة ، التي تدعو إلى دين يتمثل في عقيدة بلاشريعة . . أي علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا علاقة لها بواقع الحياة السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي ، فذلك ـ زعموا ـ من شأن البشر ، وهم الذين يفتون فيه من عند أنفسهم ، دون الرجوع إلى ما أنزل الله . ويسمون الحكم بما أنزل الله ، أو المطالبة بتحكيم شريعة الله «تسييسًا للدين» تحرِّمه الدساتير ! !

وأوربا صنعت ذلك في دينها وشريعتها لظروف خاصة ألمت بها ، تحدثنا عنها في أكثر من كتاب ، خلاصتها أن أوربا لم تعرف الدين المنزل على حقيقته قط ، إنما عرفت دينا محرفا ، حرفه آباء الكنيسة ، وهم لم يطبقوا شريعة الله قط (إلا في الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج والطلاق وشئون الأسرة) ، وإنما طبقوا من عند أنفسهم ـ باسم الدين ـ طغيانا بشعا نفر الناس من الدين ، فثاروا عليه ونحوه من حياتهم ، وحجموه في تلك العلاقة الخاصة بين العبد والرب ، التي محلها القلب ، ولا صلة لها بالواقع السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي ، إنما تحكم هذا الواقع قوانين البشر .

وأوربا حرة تفعل بدينها ما تشاء ، ويوم تلقى ربها يحاسبها بما شاء سبحانه .

أما المسلمون ، فهذه الدعوى غريبة كل الغربة عليهم ، مبعثها الغزو الفكري والانبهار بما عند الغرب ، ورفض التلقي من عند الله ، واتخاذ ما تفعله أوربا وحيا لا بد من اتباعه !

---

(١) سورة المائدة ٤٨ .   (٢) سورة المائدة ٣ .

إن الدين ـ كما تمثل في الرسالات السماوية كلها، والرسالة الأخيرة بصفة خاصة ـ ينزل «مسيّسًا» من عند الله سبحانه وتعالى، وليس البشر هم الذين يسيّسونه من عند أنفسهم! كما أن البشر لا يحق لهم أن يقولوا برأيهم في أمر قضى الله فيه سبحانه وتعالى بحكمه:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [(١)].

والذي قضى به الله سبحانه هو قوله:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[(٢)].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [(٣)].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [(٤)].

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[(٥)].

وبصرف النظر عن الجدل الذي يثار أحيانا، فإن إجماع الأمة الذي لم يخرج عليه عالم واحد في تاريخ الأمة أن التشريع بغير ما أنزل الله كفر مخرج من الملة، وليس كفرا دون كفر كما يزعم المرجئة المحدثون!

إنه مسألة تتعلق مباشرة بعقيدة لا إله إلا الله . فالإله وحده ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يحق له أن يقول: هذا حلال وهذا حرام. هذا حسن وهذا قبيح. هذا مباح وهذا غير مباح (وهذا هو التشريع: منع وإباحة، وتحليل وتحريم، وتحسين وتقبيح) والله وحده هو صاحب الحق في ذلك، بكل صفات الألوهية والربوبية التي يتصف بها وحده ـ سبحانه ـ والتي لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وبصفة خاصة هذه الصفات: أنه هو الخالق، وأنه هو العليم الحكيم، وأنه هو اللطيف الخبير:

---

(١) سورة الأحزاب. ٣٦
(٢) سورة المائدة ٤٤
(٣) سورة المائدة ٤٥.
(٤) سورة المائدة . ٤٧.
(٥) سورة النساء ٦٥.

﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[1].

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[2].

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[3].

فبما أنه هو الخالق سبحانه فهو صاحب الأمر، وبما أنه هو العليم الحكيم، اللطيف الخبير، فهو الذي يضع بعلمه وحكمته ما يصلح لأمر هذا الإنسان الذي خلقه، ويعلم كل خصائصه ودقائقه ومسارب نفسه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[4].

هذه هي القضية في جوهرها، وهي قضية القضايا منذ وجد الإنسان على الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. قضية مَن الإله؟ آلله أم غيره من الآلهة المزعومة؟ وهي في الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة تأخذ صورة خاصة: الله أم الإنسان؟

فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الله، ويرتبون على علمهم هذا أن يعبدوه وحده بلا شريك، ويطيعوا أمره، ويتبعوا ما أنزل إليهم. وأما الذين استكبروا عن عبادته فهم يجادلون، ويستنكفون:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾[5].

تلك إشارة لابد منها لمواجهة الجاهلية المعاصرة التي تدعو إلى عدم تحكيم شريعة الله، وإلى محاربة ما يطلقون عليه اسم «الإسلام السياسي» واتخاذ العلمانية دينا بدلا من الدين الإلهي.

---

(1) سورة الأعراف: ٥٤.
(2) سورة النساء: ١١
(3) سورة الملك. ١٤
(4) سورة ق: ١٦.
(5) سورة النساء: ١٧٣.

ومن هذه الإشارة نعرج على بعض نواحي الإعجاز في الشريعة الربانية، التي أنزلها الله لتحكم حياة البشر إلى قيام الساعة . .

* * *

يتردد على لسان العلمانيين دائما هذا السؤال: أنّي للشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنا أن تحكم الواقع الموجود اليوم، وهو واقع يختلف أشد الاختلاف عن الواقع الذي نزلت فيه تلك الشريعة، فضلا عن الزعم بأنها صالحة للمستقبل كذلك؟

ونقول نحن إن هذا أحد أوجه الإعجاز في الشريعة التي أنزلها الله، وأمر باتباعها، ولم يجعل لاتباعها حدا زمنيا معينا يجوز للبشر بعده أن يتخلوا عنها، ولم يحدد أحوالاً بيئية أو سياسية أو اقتصادية معينة يكفّ البشر فيها عن تطبيق الشريعة.

وإن مجرد القول بأن الظروف تغيرت معناه الشك في علم الله وحكمته. فكأنما علمه - نستغفر الله - كان ناقصا وقت تنزيل الشريعة، فلم يكن يعلم سبحانه أن الظروف ستتغير، وتأتي ظروف غير الظروف! وكأنما حكمته - نستغفر الله - كانت ناقصة، فلم يقدّر سبحانه أثر تغيّر الظروف في صلاحية هذه الشريعة التي أنزلها وأمر باتباعها اتباعا مطلقا بغير تحديد!

وقد لايدرك الذين يرفعون لافتة تغير الظروف أنهم بذلك يطعنون في علم الله وحكمته، ولكن هذا هو لازم قولهم، ولازم اعتقادهم، وَعَوْا ذلك أو لم يعوه، وقصدوه أو لم يقصدوه. فلو أنهم آمنوا حقا بأن الله عليم حكيم لم تجرؤ تلك الخواطر الفاسدة أن تخطر على قلوبهم، وتفسد مشاعرهم تجاه الله ودينه وشريعته.

ولا عيب في أن يكون الإنسان جاهلا لأمر من الأمور التي تتعلق بدينه، ولكن عليه عندئذ أن يبحث عن الحق حتى يزيل جهالته، وأن يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] . أما أن يكون جاهلا ويصر على جهله، ثم يزيد فيزعم أنه هو العالم،

---

(١) سورة طه . ١١٤ .

وأن الذين يخالفونه هم الجهال المتأخرون المتخلفون أعداء العلم وأعداء العقلانية وأعداء التقدم . . فهذا من مصائب الجاهلية . . كل جاهلية . . والجاهلية المعاصرة بصفة خاصة التي ترفع لافتة «العلم» و«التنوير» ، وتضعها فوق ما أسماه «ألكسيس كاريل» بالجهل المطبق في كتابه الشيق «الإنسان ، ذلك المجهول» ! [١]

* * *

في الحياة البشرية ما هو ثابت وما هو متغير . . وتلك من الحقائق التي لم تهتد إليها أوربا في جاهليتيها : جاهلية القرون الوسطى ، والجاهلية المعاصرة .

فأما في جاهلية القرون الوسطى ـ المظلمة عندهم[٢] ـ فقد كان الفكر الأوربي الذي تبثه الكنيسة وتشرف عليه ، يرى الثبات في كل شيء ، وينظر إلى أي تغيير على أنه خروج على نواميس الكون ، وخروج على طاعة الله ، ومن ثم فهو ضلال وهرطقة ، ومصيرهما البوار !

وأما في الجاهلية المعاصرة ، التي اتخذت نظرية التطور الداروينية عمادا لكل تصوراتها ، فإن الفكر الأوربي يرى أنه لاثبات لشيء على الإطلاق في هذا الوجود ، وأن الثبات على أي شيء مخالف لنواميس الكون ، و«قوانين الطبيعة» ، ومن ثم فالدعوة إلى الثبات على أي شيء هو جهالة وجمود ورجعية ، مصيرها البوار !

وفي كلتا حالتيها كانت أوربا واقعة في الضلالة !

فليس في الكون الذي خلقه الله ثبات مطلق لا يتغير ، وليس فيه كذلك تغير لاثبات فيه لشيء على الإطلاق ! وإنما فيه تغير دائم في الأشكال تحكمه قوانين ثابتة هي سنن الله في الكون ، سواء في ذلك الكون المادي ، أو الحياة البشرية . . وهذه هي النظرة العلمية التي فاء إليها العلم أخيراً بعد البحث والدراسة والتجريب .

كيان الذرة ثابت ، والعلاقة بين مكوناتها ثابتة لاتتغير . . ولكن الذرات يمكن أن

---

(١) يقول ألكسيس كاريل في كتابه هذا : إن جهلنا بحقيقة الإنسان جهل مطلق . وإننا ـ بهذا الجهل ـ نصنع حضارة لا تصلح للإنسان ، لذلك يزداد الإنسان انحدارا كلما زاد توغله في تلك الحضارة !

(٢) كانت هذه الفترة ذاتها من أزهى العصور الإسلامية وأكثرها نورا !

تتخذ أشكالات شتى، لا يحصيها إلا خالقها سبحانه، ولكنها في جميع أشكالها ذات كيان ثابت، والعلاقة بين مكوناتها ثابتة لاتتغير.

والحياة الإنسانية كذلك.

فطرة الإنسان ثابتة، ولكن حياته الواقعية يمكن أن تأخذ أشكالا شتى، في الزمن الواحد، وفي الأزمنة المختلفة. ولكنها في جميع أشكالها، تدور حول المحاور الثابتة في كيان الإنسان.

مع فارق أساسي بين الكون المادي وبين الإنسان: أن الكون المادي ليس له إلا طريق واحد، لايغيره، ولا يملك تغييره، لأنه لا إرادة له فيه:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1].

أما الإنسان فإن له طريقين، طريق الهدى وطريق الضلال، وله القدرة على التمييز بين الطريقين، والقدرة على اختيار أحدهما:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2].

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[4].

وهذا من التكريم الذي كرم الله به الإنسان، فليس مقهورا على الطاعة كالسموات والأرض، ولكنه يطيع باختياره وإرادته.. ويعصى إذا شاء، باختياره وإرادته:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾[5].

---

(١) سورة فصلت . ١١ .
(٢) سورة البلد ١٠ .
(٣) سورة الإنسان ٣
(٤) سورة الشمس: ٧-١٠ .
(٥) سورة الحج: ١٨

بعبارة أخرى إن الكون كله ـ بما فيه الإنسان ـ مفطور على العبادة :

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

ولكن الإنسان من بين الكائنات له حالتان : حالة يكون فيها على فطرته السوية ، فيعبد الله حق عبادته ، وحالة تفسد فيها فطرته ويمرض قلبه ، فيعبد آلهة أخرى غير الله ، معه أو من دونه ، بأي لون من ألوان العبادة التي يزينها الشيطان ، فيصبح عابدا للشيطان بدلا من أن يكون كبقية الكون كله عابدا لله . .

ومن ثم تفترق طريق البشر شعبتين لا التقاء بينهما : الشعبة التي يعبد فيها الله ، والشعبة التي يعبد فيها الشيطان ؛ وجيلا وراء جيل ، يسلك فريق من البشر هذا الطريق ويسلك فريق آخر الطريق الآخر . .

وتلك قضية البشرية الأساسية .

أما قضية الثبات والتطور ، التي يلوكها «التطوريون» ، فهي ذات منحى مختلف .

يزعمون أن الإنسان ليس له كيان ثابت . ليس له «فطرة» إنما هو نتاج ظروفه وبيئته ؛ وحيث إن الظروف دائمة التغيير ، وأشكال البيئة لا تثبت على حال ، فلا يمكن أن يكون هناك شيء ثابت في حياة البشر . ولا يمكن أن تحكمه شريعة ـ ولو كانت منزلة من عند الله ، ولو كانت مناسبة لوقتها تمام المناسبة ـ لأن الظروف تتغير ، فيتغير تبعًا لها «الإنسان» ، فيصبح إنسانا جديدا غير الإنسان الذي أنزلت له الشريعة في حينها ، وكانت في وقتها مناسبة لأحواله .

وهذه هي اللوثة التي أصابت الفكر الأوربي ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى هذه اللحظة ، وما تزال تعيث فسادا في الأرض . .

ونظرة موضوعية بسيطة تدحض هذه اللوثة وتفندها . . وخذ هذه «الحقائق» على سبيل المثال :

---

(١) سورة الروم : ٣٠.

في فطرة الإنسان أن يحب الحياة، ويحب لو طالت حياته على الأرض، ويحب أن يستمتع بحياته. . هل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة حين صعد الإنسان إلى القمر، وحين صار يضغط على زر فينطلق في الفضاء؟

في فطرة الإنسان أن يحب التملك. . فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة حين تقدم علمه وامتد إلى الآفاق؟

في فطرة الإنسان أن يحب أن يأوي إلى مسكن يقيه البرد والحر، ويشعر فيه بالخصوصية، ويشعر فيه بأنه آمن من أن يطلع أحد على حياته الخاصة أو ينفذ إليها بصورة من الصور. . فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

في فطرة كل جنس أن يميل إلى الجنس الآخر ويشتاق إلى الاجتماع به. . فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

في فطرة الإنسان أنه يرغب في «المعرفة». يتعرف على بيئته، ثم يتوسع في المعرفة ويحب لو أنه يعرف كل شيء عن كل شيء. . فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

في فطرة الإنسان أنه لا يكتفي بما في يديه من الأدوات بالصورة التي هي عليها، إنما يحب أن يحسّنها ويجملها على الدوام. . فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

وعشرات أخرى من «النوازع الفطرية»، النابعة من الفطرة التي فطر الله الناس عليها. . هل تغير منها شيء حين دخل الإنسان «الألفية الثالثة» التي يطنطن بها«التطوريون»؟

نعم. . بعض هذه النوازع ـ وليس كلها ـ تغيرت وسائل الاستجابة إليها، وتغيرت صور الاستجابة. . فهل تغيرت أصولها ومنابتها؟!

يسكن الإنسان في كوخ. . ويسكن في خيمة. . ويسكن في بيت من الطين. . ويسكن في قصر مزين بكل أنواع الزينة. . ما الذي تغير؟ الصورة أم الجوهر؟

ولا أحد ينكر أن تغير الصورة يحدث تغيرات في المشاعر والأفكار وأنماط السلوك، ولكن من السذاجة أن نظن أن التغير يتجاوز القشرة، ويصل إلى المنابت والمنابع، فيغيّر النزعة الفطرية من أساسها، ا فيلغيها أو يغير مسارها في داخل

النفس . . وذلك فضلا عن حقيقة نفسية أخرى، هي أن الحس البشري يتبلد بعد فترة على «الصورة» التي تتكرر أمامه، فلا تعود تحركه كما حركته أول مرة، ولا يعود يتأثر بها كما تأثر حين كانت جديدة عليه، بل يخفت تأثيرها رويدا رويدا . . بينما يبقى المؤثر الحقيقي الدائم هو «الجذر» الذي تنبت منه النزعة الفطرية . . وهو الذي لا يتغير، ولايفتر، ولا يكف عن إعطاء دفعته طالما كان الإنسان باقيا على حيويته ووعيه، حتى وإن فقد بعض قدراته . . لأنه هناك في عمق الفطرة، وليس شحنة عارضة تذهب بعد حين!

ومن جانب آخر ينبغي أن نسأل: لماذا يخترع الإنسان مخترعات جديدة ولا يكف عن الاختراع؟

إن نزعة الاختراع هي ذاتها نزعة فطرية، ناشئة من الرغبة الدائمة في التحسين والتجميل، وقد أودعها الله في الفطرة من أجل أن يسعى الإنسان دائما إلى الارتقاء بحياته إلى مستوى الإحسان، ولا يقف عند مستوى الضرورة، لا في المشاعر ولا في المحسوسات:

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»![1]

فمن أجل تحسين الحياة وتجميلها ليصل إلى درجة الإحسان يخترع الإنسان على الدوام أدوات جديدة ووسائل جديدة . . فهل يخترعها عبثا أم لتلبية دافع في داخل النفس؟

لماذا اخترع الإنسان السيارة والقطار والطائرة والصاروخ؟ أليس لأن في داخله رغبة في الانتقال السريع من مكان إلى مكان . . بل رغبة أن لو استطاع أن يغمض عينيه ويفتحهما فإذا هو في المكان الذي يريد أن ينتقل إليه؟

نعم . . إن كل اختراع حين وجد أحدث تغييرات في صورة الحياة وأشكالها ربما لم تكن تخطر على البال بنفس الصورة قبل أن تتحقق، ولكنه ما لم يلب رغبة أصيلة في النفس، فلن يقدر له أن يعيش! فالذي يحرك الحياة إذن ليس هو المخترعات في ذاتها، إنما هو الدوافع الفطرية الكامنة، التي أدت إلى الاختراع . .

(١) اقرأ إن شئت فصلا بعنوان «فليرح ذبيحته» في كتاب «قبسات من الرسول» يشرح أبعاد هذا الحديث من أحاديث الرسول ﷺ .

وتلك الدوافع هي «الفطرة» التي يستوي فيها راكب الجمل وراكب الصاروخ، وإن اختلفت صورة التلبية بين راكب الجمل وراكب الصاروخ!

ولكن الاختلاف الجذري الذي يفرق بين إنسان وإنسان ليس هو اختلاف الوسيلة المادية التي يلبي بها دوافعه الفطرية بقدر ما هو نوعية الدوافع ذاتها في داخل النفس، وترتيب أهميتها في القائمة، أيها أكبر قيمة من الأخرى.

ومن هنا لا ينقسم الناس في ميزان القيم إلى راكب جمل وراكب صاروخ! إنما ينقسمون إلى راكب جمل مؤمن وراكب جمل كافر، وراكب صاروخ مؤمن وراكب صاروخ كافر.. وهكذا، في كل مجال من مجالات الحياة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [1].

والمؤمنون كلهم من راكب الجمل إلى راكب الصاروخ لهم سمات مشتركة، وإن اختلفت صور حياتهم، والكافرون كلهم من راكب الجمل إلى راكب الصاروخ لهم سمات مشتركة وإن اختلفت صور حياتهم.

وهذا الاختلاف الرئيسي بين الفريقين لا يلغي الفروق الجزئية الكائنة بين أفراد كل فريق، الناتجة عن اختلاف صور حياتهم، ولكنه يفقدها كثيرا من وزنها المبالغ في تقديره عند التطوريين.

لقد وضع التطوريون كل الثقل في الفروق الجزئية الناشئة عن اختلاف الصور المعاشة، وركزوا عليها وقسموا التاريخ البشري على أساسها، فهذا العهد الرعوي، وهذا العهد الزراعي، وهذا العهد الصناعي، وهذا العهد الذري.. وكان هدفهم من ذلك نزع الثقل من «القيم» التي تحكم حياة الناس، لأنهم لايؤمنون بتلك القيم، ويعملون على تحطيمها، لغايات خبيثة في نفوسهم، لا لأن هذا هو الحق، ولا لأن النظرة الموضوعية تؤدي إلى ما زعموه.

ومحك القضية على أي حال هو الصورة التي آلت إليها حياة الناس حين فقدوا القيم أو أهملوها، وعنوا بأشكال الحياة الظاهرة، وجعلوها هي القيم البديلة.

---

(١) سورة التغابن: ٢.

وأوربا ـ في جاهليتها المعاصرة ـ يمكن أن تقول أي شيء ويمكن أن تفعل أي شيء، ولو أدى إلى تدمير حياتها من أساسها. . أما التطوريون الذين يحملون أسماء إسلامية، فما خطبهم؟!

ألا يراجعون ضمائرهم؟

نسألهم سؤلا واحدا، نطلب منهم أن يكونوا أمناء مع أنفسهم في الإجابة عنه: أيهما أفضل وأعلى وأرفع وأقوم: جيل الصحابة رضوان الله عليهم، أم هذا الجيل النكد الذي يعيشون فيه؟

ثم نرتب على السؤال سؤالا آخر: هل الفارق الحقيقي بين جيل من البشر وجيل كامن في القيم التي يتمسكون بها ويعيشون على هداها، أم في ثورة التكنولوجيا وثورة المعلومات؟!

ولا يحسبن أحد أننا نريد بقولنا هذا أن نلغي قيمة التقدم المادي والعلمي والتكنولوجي الذي أحرزته البشرية بجهادها الطويل. .

كلا. . على الإطلاق!

فالمتخلف عن الركب في هذه الشئون كلها مخطئ في الميزان الرباني. فقد خلق الله الإنسان لعمارة الأرض:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (1).

وأعطاه من الأدوات ما يعينه على هذا الأمر:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (2).

ثم سخر للإنسان طاقات السموات والأرض:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(3).

---

(1) سورة هود. ٦١.
(2) سورة النحل: ٧٨.
(3) سورة الجاثية: ١٣.

فإذا قصر في استخدام الأدوات التي وهبها له الله، وقصر في عمارة الأرض، وقصر في تحقيق ما سخر الله له من طاقات السموات والأرض، فهو مخطئ ومقصر بكل تأكيد. .

ولكن دعنا نعقد مقارنة بين رجلين، أحدهما متخلف عمرانيا وتكنولوجيا وماديا، ولكنه عفيف، لا يفكر في العدوان على غيره، عفيف في تناوله لطيبات الحياة لايسطو على عرْض، ولا يسطو على حق إنسان آخر في الحياة، والثاني متقدم ماديا، ينبع التقدم المادي من بين أظافره، ولكنه يبيح لنفسه ـ أو لشعبه ـ أن يصبغ العالم كله بصبغته ولو كانت شوهاء، ويبيح لنفسه ـ أو لشعبه ـ أن يقتل ويسفك الدماء في سبيل السيطرة والعلو، ويبيح لنفسه ـ أو لشعبه ـ أن يتحكم في أقدار الناس والشعوب. .

كلاهما مخطئ ولا شك ، ولكن أيهما خطؤه أكبر وأخطر؟ وأيهما جُرْمه أكبر وأخطر؟

* * *

ونعود الآن بعد هذه الجولة إلى قضية الشريعة الربانية المنزلة قبل أربعة عشر قرنا، وموقفها من «الإنسان» وموقف الإنسان منها، على ضوء قضية الثبات والتغير[١].

إذا تبين لنا من البحث الموضوعي أن في الحياة البشرية أصولا دائمة لا تتغير، هي المركوزة في أصل الفطرة، وصوراً متغيرة من الممارسة لبعض النوازع الفطرية (وليس كلها) مع ثبات أصولها ومنابعها في الفطرة، فما الطريقة المثلى لتنظيم الحياة البشرية على أسس سليمة تتجاوب مع تلك الفطرة في ثوابتها ومتغيراتها: تثبيت الشريعة في مجالات الحياة كافة بصرف النظر عما يجدّ في حياة البشر؟ أم تركها تتغير في جميع مجالاتها كلما عنّ للبشر أن يغيروا؟ أم تثبيت ما من شأنه الثبات، وإتاحة المجال للمتغيرات أن تتغير مع تثبيت الأصول التي تحكمها في تغيرها ؟

هنا ـ في هذا المجال بالذات ـ يتجلى لنا عنصر من عناصر الإعجاز في التشريع الرباني.

---

(١) اقرأ إن شئت حول هذه القضية في كتاب «التطور والثبات في حياة البشرية».

في الحياة البشرية ثوابت ليس من شأنها أن تتغير لأن تغيرها يفسد حياة الناس. وهذه نصت عليها الشريعة نصا صريحا ملزما. وهناك متغيرات ليس من شأنها أن تثبت على صورة معينة لأن تثبيتها يجمد الحياة ويعوقها عن النمو السوي، وهذه ـ في الشريعة الربانية ـ مفتوح فيها باب الاجتهاد، مع تثبيت الأصول التي تحكمها، بحيث لاتحل حراما، ولاتحرم حلالا، ولاتصادم مقاصد الشريعة.

وبهذا تواكب الشريعة حركة البشرية في جميع خطواتها، وتضبط منطلقها في ذات الوقت، فلاتأسن من الجمود، ولا تجنح إلى الانحراف.

هناك الضرورات الخمس: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ المال. هذه ثوابت لاتخضع للتغيير، لامن حيث الجوهر ولا من حيث الصورة، لأن أي تغيير فيها يفسد الحياة.

ومن حفظ الدين تحكيم الشريعة، وتحريم الردة.

ومن حفظ العقل تحريم المسكر والمخدر.

ومن حفظ النفس تحريم القتل والعدوان.

ومن حفظ العرض تحريم الفاحشة وما يقرّب منها أو يؤدي إليها.

ومن حفظ المال تحريم السرقة والغش وأكل أموال الناس بالباطل.

وتتعلق بهذه جميعا حدود لا تغيير فيها، ولا استبدال لغيرها بها.

ثم هناك ثوابت أخرى ناشئة من ثبات أركانها وعدم قابليتها للتغيير، كعلاقات الأسرة، وعلاقات الجنسين، وعلاقات المجتمع الإسلامي بعضه ببعض، وعلاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم.

وتلك كلها تحكمها قواعد ثابتة ونصوص تفصيلية غير قابلة للتغيير.

وهناك بعد ذلك أمور كثيرة تتغير صورتها على الدوام، نتيجة تفاعل العقل البشري مع الكون المادي، واكتساب الإنسان خبرات جديدة من خلال هذا التفاعل.. فتتغير الصورة السياسية، والصورة الاقتصادية، والصورة الاجتماعية، ولكنها في تغيرها الدائم لاينبغي لها أن تخرج على القواعد العامة التي تحكمها، والمنصوص عليها في كتاب الله (والسنّة مكملة وشارحة، وهي من الوحي الرباني).

وهكذا تنمو المجتمعات نموا سويا، وتتغير بعض الصور في حياتها من جيل إلى جيل، ومن طور إلى طور، ولكن أصولها لاتتغير. فتظل الشريعة عاملة في حياتها، لا تحتاج إلى تبديل ولا تغيير ولا تعديل، بينما يظل باب الاجتهاد مفتوحا لتغطية ما يجد من أمور في حياة الناس بغطاء الشريعة الدائم الذي لا يتغير، وتظل الأمة محافظة على إسلامها بمحافظتها على عقيدتها وشريعتها، ومحافظة في الوقت ذاته على رضوان الله، الذي أنزل غضبه على من لم يحكم بما أنزل الله:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2].

* * *

ثم ننتقل إلى مجالين آخرين من مجالات الإعجاز في الشريعة الربانية، أحدهما يتعلق بقضية الفرد والمجتمع، والآخر يتعلق بقضية الجريمة والعقاب، وهما قضيتان تتداخلان في بعض شئونهما، وإن كان كل منهما له مجاله الخاص.

وقد تكلمنا من قبل عن قضية الفرد والمجتمع في أثناء الحديث عن الإعجاز التربوي في القرآن. ولكنا هنا نتحدث عن الجانب التشريعي، وهما متكاملان في منهج الله، إذ الشريعة ذاتها جزء من منهج التربية الإسلامي

الفرد في ظل الشريعة يستمتع بما يكفل له الحياة السوية النظيفة المتوازنة.

كرامته محفوظة بالتكريم الرباني:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[3].

فلا يتجسس عليه، ولا يؤخذ بالظنة، ولايؤخذ بجريرة غيره، ولايقتحم عليه مسكنه، ولا تنتهك حرماته، وهو بريء حتى تثبت إدانته، ولا يضرب ولا يعذب ولا تقيد حريته بغير موجب، ولابد عند اتهامه من قرائن تؤيد الاتهام، ولكن لا تؤخذ منه الاعترافات قسرا بالتعذيب ولا بالإغراء، ويحاكم ـ حين يحاكم ـ بمقتضى الشريعة الربانية لا على هوى من يحاكمه.

---

(١) سورة المائدة: ٥٠.　　(٢) سورة النساء. ٦٥

(٣) سورة الإسراء: ٧٠.

وله نشاطه المشروع: يعمل، ويتكسب كسبا حلالا، ويمتلك، ويبيع ويشتري، ويرث، ويورث، ويهب ويتصدق من ماله كما يشاء، لاقيد عليه في شيء من ذلك إلا ما تقتضيه الشريعة.

وأما ما يسمى اليوم «الحقوق السياسية»، فهي في الإسلام واجبات..

فالاهتمام بالشئون العامة واجب: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»(١)

والنصح للحاكم والمحكوم واجب: «الدين النصيحة. قالوا: لمن يارسول الله؟ قال: لله ورسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم» (٢).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٣). «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الإيمان»(٤).

وله حقه في بيت المال إذا احتاج: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٥).

وهكذا تكون الحياة الكريمة مكفولة له من كل جوانبها..

ولكنه ليس متروكا على هواه يفعل ما يشاء تحت مظلة «الحرية الشخصية» كما تفعل النظم الليبرالية، التي تدخل في تلك الحرية الشخصية حرية الإلحاد، وحرية التحلل الخلقي، وحرية اكتساب المال الحرام بالربا، وبنشر اللهو والفساد والفجور الذي يدر المال على ناشريه!!

إن تلك «الحرية الشخصية» على هذا النحو كانت جزءا من مخطط إفساد البشرية على يد «شعب الله المختار»، دسوه على الثورة الفرنسية حتى صار جزءا من

---

(١) رواه الطبراني والحاكم.
(٢) متفق عليه.
(٣) سورة آل عمران ١٠٤.
(٤) رواه الشيخان.
(٥) سورة التوبة: ٦٠.

«الديمقراطية» تحت شعار Laissez Passer , Laissez Faire دعه يعمل (ما يشاء) دعه يمر (من حيث يشاء)، ولم يكن القصد منه الخير للبشرية وإن بدا في أعين الناس يومئذ أنه «تحرير» من القيود والضغوط التي كانت تجثم على صدور الشعوب وتكتم أنفاسها، ولكن المخططين الشريرين كانوا يعرفون أبعاده، فلم يقفوا به عند إزالة الظلم، بل تجاوزوها إلى الإفساد المقصود:

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١).

وفي الوقت الذي تكفل الشريعة للفرد كرامته، وتعطيه حقوقه المعقولة، فإنها تحفظ للجماعة كيانها كذلك. فللجماعة حق التقويم للفرد الذي يتجاوز حدوده المشروعة، فيتعدى على حرمات الله، أو يعيث في الأرض فسادا، أو يؤذي غيره، أو يأتي بمنكر لاتقره الأعراف المستمدة من الشريعة، وليس له أن يحتج على الناس بأنه حر يفعل ما يشاء..

وليس هنا مجال تفصيل ما يحق للحاكم وما يحق لأفراد الأمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد المعتدي، ومرتكب المنكر، فتلك مباحث متخصصة تطلب في كتب الفقه، إنما نتحدث هنا عن الخطوط العريضة التي تثبت حق الجماعة على الفرد. بما يمنعه من الطغيان، وإيقاع الضرر والأذى على الآخرين، ويمنعه من الخروج على العرف، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وتزيين المنكر بالقول أو العمل، وتزيين الخروج على أوامر الله، والدعوة إلى الفساد من أي نوع فكريا كان أو اجتماعيا أو أخلاقيا أو اقتصاديا أو سياسيا.. فمن حق الجماعة أن تحمي نفسها من ذلك الشر كله، وحقها في ذلك مقدس كحق الفرد..

ولكن مزية المنهج الرباني أنه لا يصنع كما تصنع النظم الشمولية، التي تسحق الفرد تحت ثقلها، فتحرم عليه أن يفتح فمه بكلمة نقد للحاكم. أو حاشيته، وتراقبه حتى في خلوته، وتعد عليه أنفاسه، وتتجسس عليه، وتتعامل معه دائما على أنه مجرم يتوقع منه عمل الشر في كل لحظة، وعليه هو أن يثبت براءته في كل لحظة!

---

(١) سورة المائدة: ٦٤.

«إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»[1] .

ولقد كان عمر رضي الله عنه ، وهو من هو في هيبته التي أضفاها الله عليه ، يقبل النقد ، ويقول لمن أراد أن يمنع أحد الرعية من قولة ينتقد فيها الخليفة : دعه! فلا خير فيهم إن لم يقولوها لنا ، ولا خير فينا إن لم نسمعها منهم! ويقبل من سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يقول له : لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتزرت به ، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين! ويقبل من امرأة أن تناقشه في أمر المغالاة في المهور ثم يقول : أخطأ عمر وأصابت امرأة .

إنما هو التوازن الذي يمنع طغيان الفرد على الجماعة وطغيان الجماعة على الفرد ، ويؤدي إلى استقرار تحفه البركة ، وتجري فيه الأمور بالقسط :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [2] .

* * *

أما قضية الجريمة والعقاب فللشريعة فيها توازن مماثل . .

إنها لا تقسو على الفرد لحساب الجماعة (وإن ظن بعض الجهال ذلك بالنسبة للعقوبات الإسلامية) ، ولا تدلل المجرم كذلك حتى تجعله مجنيا عليه من المجتمع كما تفعل النظم التي تأثرت بمباحث علم النفس التحليلي ، الذي يحسن أن نسميه «علم تبرير الجريمة» لأن هذا ما يؤدي إليه بالفعل!

إنما تنظر الشريعة إلى الجريمة والعقاب بعين الفرد وعين الجماعة معًا في ذات الوقت .

إن الإسلام لا يبدأ بفرض العقوبات الرادعة كما يظن الذين يقرءون النصوص القرآنية بغير تدبر ، فيجدون فيها مثلا : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾[3] . ويجدون فيها : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم . (٢) سورة الحديد : ٢٥ .
(٣) سورة المائدة . ٣٨ .

جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١] . ويجدون فيها : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٢] .

إنما يعمل الإسلام أولا لمنع الأسباب التي تؤدي إلى الجريمة ، بأن يكفل للفرد كل الضمانات المعقولة التي من شأنها أن تجعل الفرد السوي لا يفكر في الجريمة أصلا ، ولا يجد مسوّغا لها . فإذا ارتكب الجريمة بعد ذلك ، فهو غير معذور . ثم إن العقوبة الرادعة التي تقررها الشريعة هي ذاتها وسيلة لأن تجعل الجاني يفكر مرات قبل أن يقدم على الجريمة ، فإذا أقدم بعد ذلك ، وليس له عذر ولا مسوّغ معقول ، وفيه استهتار وعدم مبالاة ، فالإشفاق عليه ، وتخفيف العقوبة عنه ، يُعَدّان نشراً للجريمة في الواقع وتشجيعا عليها ، ولا يعتبر علاجا ناجعا لحماية المجتمع من الجريمة . والواقع الذي يعيشه الغرب ، الذي يأخذ بنظريات علم النفس التحليلي ، والدراسات الاجتماعية التي تنظر بعين الفرد ضد الجماعة ، يشهد بصدق ما نقول . فالجرائم هناك من الكثرة والشيوع بحيث تعد بالثانية ، لا باليوم ولا بالساعة ولا بالدقيقة ، فيقال : تحدث في كل ثانية كذا جريمة قتل ، وكذا جريمة سرقة ، وكذا جريمة اغتصاب ، وكذا . . وكذا ، من صنوف الجرائم!

إن الإسلام ينظر في دوافع الجريمة عند الفرد فيعمل على تلافيها قبل وقوعها ، أو جعل مرتكبها غير معذور في ارتكابها ، فإن وجد أنه معذور فعلا فالشريعة تقول : «ادرءوا الحدود بالشبهات»[٣] !

دافع السرقة هو الجوع . . والإسلام يسعى ـ بوسائله المختلفة ـ ألا يكون في المجتمع جائع يضطره الجوع إلى السرقة ، فإن وجد الجوع فإنه يدرأ الحد ، كما فعل عمر رضي الله عنه ، في عام الرمادة ، حين جاع الناس ، فأوقف تطبيق حد السرقة

---

(١) سورة النور : ٢ . (٢) سورة المائدة : ٣٣ .
(٣) رواه أبو يعلى والبيهقي وابن ماجه ، وعبد الرزاق والطبراني وابن أبي شيبة

لوجود الشبهة، ولم يكن ذلك منه إبطالا للشريعة كما يرجف المرجفون، إنما كان هو التطبيق الواعي الصحيح لشريعة الله.

ودافع الزنا فورة الغريزة.. والإسلام يسعى ـ بوسائله المختلفة ـ لإتاحة المنطلق الطبيعي النظيف لفورة الغريزة بتيسير الزواج والحث عليه والتبكير فيه، وبتوجيه طاقات الشباب إلى ميادين للعمل والنشاط تستوعب جزءا من الطاقة وتخفف الحمل على الأعصاب، ثم بتحريم التبرج في المجتمع، الذي هو المحرض الأكبر على الفاحشة.. وكذلك بتربية الناس على مخافة الله، والتوجه إليه بالعبادة، وتربيتهم كذلك على الصبر على المكاره حتى يأتي الفرج من عند الله.. وعندئذ لا عذر لمن يعتدي على أعراض الناس.

وكذلك الجرائم الأخرى، لكل منها دوافع، والإسلام يسعى أولا لسد الذرائع، حتى لايكون لمرتكب الجريمة عذر في ارتكابها، فإذا ارتكبها وهو غير معذور أقيم عليه الحد، وإن كانت له شبهة فالشبهة تدرأ الحد..

نظام دقيق.. يأخذ الأمر من جميع زواياه في آن واحد؛ فلا ينكل بالجاني لمجرد التنكيل، ولا يدلله كذلك فيشجعه على الاستهتار بأرواح الناس وممتلكاتهم وأعراضهم وأمنهم ومصالحهم.

وفي المجتمع الإسلامي الذي يطبق الشريعة تقل الجرائم بصورة ملحوظة، ويسود الأمن والاستقرار والطمأنينة، وتحف البركة حياة الناس تحقيقا لوعد الله:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (١).

* * *

ولا يفوتنا أن نذكر في باب الإعجاز التشريعي ذلك الشمول الذي تتميز به الشريعة الربانية، مع خاصية التوازن التي أشرنا إليها من قبل.

ما من مجال من مجالات الحياة إلا للشريعة مدخل فيه.. فهو ـ بالضرورة ـ

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

واقع في واحد من هذه الأبواب الخمسة : حرام أو حلال أو مباح أو مندوب أو مكروه . . سواء أكان مجالا اقتصاديا أم سياسيا أم اجتماعيا أم أخلاقيا أم فكريا ، أم ما يكون من ألوان النشاط البشري في الأرض . .

وذلك من الإعجاز!

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾(١) .

إن النظم البشرية ـ بحكم قصور البشر عن الإحاطة ـ تهتم ببعض الجوانب على حساب جوانب أخرى ، وتركز على مجالات وتهمل مجالات . .

في الديمقراطيات الليبرالية ، هناك تركيز كبير علي «الحقوق السياسية» . . يقابله إهمال ملحوظ في الجوانب الأخلاقية يصل إلى حد التسيب الذي يهدد تلك المجتمعات في النهاية بالانهيار .

في النظم الرأسمالية تركيز شديد على حرية رأس المال في العمل والحركة ، ورفع الحواجز من طريقه Laissez Passer ! دون النظر إلى العواقب المحلية والعالمية التي تنجم عن هذه الحرية ، التي عبر عنها أحد كتابهم وهو يتحدث عن عواقب الربا ، والمعاملات الربوية ، بأن نتيجتها النهائية هي «تزايد الثروة في يد فئة يتناقص عددها باستمرار ، وتزايد الفقر في أعداد من الناس يتزايد عددهم باستمرار!»(٢) ، وذلك فضلا عن الحروب والصراعات العالمية التي تطحن الناس طحنا وتفسد عليهم أمنهم وطمأنينتهم . . والعولمة الحاضرة نموذج!

في النظم الدكتاتورية تركيز شديد على سيادة «السيد» الذي يحكم ، وإحاطته بكل وسائل السيطرة ، وكبت حريات الناس في المقابل ، لأنها تحد من سلطان «السيد» ، ولا حقوق للناس إلا ما يتكرم به السيد على الناس تكرما ، وعليهم أن يرضوا صاغرين . وفي الوقت ذاته تباح الملهيات ، ليغرق الناس فيها وينسوا همومهم ، كما كانت الشيوعية تفعل بشعوبها ، وتفخر بأن أعلى الرواتب فيها هي رواتب الممثلين والممثلات ، والراقصين والراقصات!

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) انظر تقرير شاخت عن الربا

النظرة الشاملة التي تضع كل شيء في مكانه ليست من شأن البشر! فالبشر تحركهم أهواؤهم أكثر مما تحركهم عقولهم.. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾(١). لا لأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر، ولكن لأنهم يلتزمون بشريعة الله، فتمنع عنهم الجنوح في جانب والإهمال في جانب.. وتوازن حياتهم فينعمون بالأمن والطمأنينة والاستقرار.

* * *

تلك بعض جوانب الإعجاز في الشريعة الربانية. وإن تعجب بعد ذلك، فاعجب للذين ينادون بتنحية الشريعة عن الحكم، وتحكيم القوانين الوضعية بدلا منها، بحجة أن البشر أعلم بمصالحهم من ربهم الذي خلقهم، والله يقول:

﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾(٢).

﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الصافات: ١٦٠ (٢) سورة البقرة: ١٤٠.
(٣) سورة البقرة: ٢١٦.

من الإعجاز العلمي

ليس القرآن كتاب علوم! فلا هو كتاب في الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو علم الحياة!

ولكنه مع ذلك يحوي إشارات في كل تلك العلوم!

وموضع هذه الإشارات في كتاب الله هو تعريف الناس بقدرة ربهم التي لا تحد، وبآيات قدرته في هذا الكون، ليعرفوا أنه لا إله غيره، ولا مدبر غيره، ولا رازق غيره، ولا مهيمن غيره، وأنه هو الفعال لما يريد، فيعبدوه وحده بلا شريك، ويتبعوا ما أنزل إليهم . .

وبعض هذه الإشارات كان معلوما مشاهدا بالنسبة للعرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، فكان ذكرها لهم، وتذكيرهم بها، مقصودا به إزالة الغشاوة التي تغشى على بصائرهم فتجعلهم لا يدركون الدلالة الواضحة التي يجب أن تستمد منها، وهي أنه ما دام الله هو الذي يَقْدرُ، وهو على كل شيء قدير، ولا أحد يَقْدرُ قدرته، ولا يدبر تدبيره، ولا يهيمن هيمَنته، فالعبادة ينبغي أن توجه إليه وحده، دون تلك الآلهة المزعومة التي لاتخلق، ولا تَقْدرُ، ولا تدبر، ولاتهيمن . .

ولكن بعض هذه الإشارات كان جديدا على أولئك المخاطبين بالقرآن أول مرة، لا يعرفون أسرارها، أو لا يعرفون تفصيلاتها . . وقال لهم الله في كتابه المنزل إنهم سيعرفونها ذات يوم :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1] .

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا . .﴾[2] .

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[3] .

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .
(٢) سورة النمل . ٩٣ .
(٣) سورة ص : ٨٨

فأما الذين آمنوا فقد آخذوا هذه الإشارات بالتسليم ، وإن كانوا لايعرفون كل شيء عنها ، مادامت من عند ربهم الذي آمنوا به وصدقوه :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾(1) .

﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾(2) .

ولكن أجيالاً وراء أجيال كانت تتعرف رويدا رويدا على بعض أسرار هذه الإشارات ، فتزيدها المعرفة إيمانا ، وإن كانوا قد كانوا مؤمنين ومصدقين من قبل . .

وفي عصرنا الحديث هذا الذي اتسعت فيه دائرة العلوم ، وانكشف فيه كثير من أسرار الكون ، تبينت للناس حقائق كثيرة تتعلق بالإشارات القرآنية ، لم تكن معلومة من قبل ، فازداد الناس تعلقا بتلك الإشارات ، وقامت بشأنها أبحاث متخصصة يقوم بهاعلماءمسلمون في شتى فروع المعرفة ، وقامت دعوة تهدف إلى الإكثار من هذه الأبحاث ، من أجل إقناع غير المسلمين بالإسلام ، عن طريق إثبات صدق القرآن ، وأنه وحي منزل من عند الله ، إذ لم تكن المعلومات الواردة فيه معروفة للبشرية كلها من قبل ، فيستحيل أن يكون محمد ﷺ هو مؤلف القرآن من عند نفسه كما يزعم المستشرقون وغيرهم من أعداء الإسلام . وهو اتجاه سليم في ذاته ، وقد أسلم على هداه بعض الناس بالفعل ، كذلك الطبيب التايلندي الذي قرأ بحثا من هذه الأبحاث عن أطوار الجنين ، يدور حول الآية الكريمة :

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(3) .

فذهل الرجل . . وقال إن هذا الطور من أطوار الجنين ، الذي يكون فيه كالمضغة لم يكن معروفا للبشرية كلها قبل عشر سنوات فحسب ، وإنما عرف بعد اختراع أجهزة تراقب تطور الجنين في داخل الرحم وهو حيّ ، فلا يمكن أن يكون محمد ﷺ قد قال هذا الكلام من عند نفسه ، ولابد أن يكون وحيا من عند الله . ثم قام فقال : أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

---

(1) سورة البقرة : ٢٦ . (2) سورة آل عمران : ٧ .

(3) سورة المؤمنون : ١٤ .

نعم! ولكن هناك في هذا الاتجاه محاذير . . فبعض الناس تدفعهم الحماسة فيتلقفون كل نظرية علمية يظنون فيها تأييدا أو إثباتا لإشارة من الإشارات الواردة في القرآن، فيسارعون إلى تبنيها، ويفسرون الآيات القرآنية على هداها . . وليس كل ما يقال في الساحة العلمية حقائق! فبعضها لا يزيد على فروض علمية، وبعضها مازال في طور النظرية لم يصل إلى حد أن يصبح حقيقة علمية موثوقا بها. فإذا ربطنا تفسيرنا للآيات القرآنية ببعض هذه الفروض أو النظريات، ثم تبين بعد حين من الوقت أنها لم تكن صحيحة، فإننا نقع ـ من حيث لا ندري ـ في الغلطة التي وقعت فيها الكنيسة في العصور الوسطى، إذ تبنت أفكارا علمية كانت سائدة يومئذ، ففسرت بها ما جاء في التوراة والإنجيل من إشارات كونية، فلما تقدم العلم وتبين خطأ هذه النظريات كفر الناس بالتوراة والإنجيل؛ وكذبوا كل ما كان فيهما مما بقي على أصله المنزل، ومما حرف ، ومما أسيء تأويله، فجعلوها كلها أكاذيب!

والقرآن غني بدلائل الإعجاز فيه، سواء الإعجاز البياني الذي تحدى الله به البشر جميعا، والبلغاء في أولهم، فعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بألوان الإعجاز الأخرى التي تحدثنا عن بعضها في هذا الكتاب. ولا يحتاج أن نتلمس له أسانيد من النظريات العلمية المتداولة اليوم، التي قد يظهر بطلانها غدا. ولكن لا بأس أن نأخذ الحقائق العلمية التي ثبتت صحتها، والتي نجدها متوافقة مع ما جاء في القرآن، أو مفسرة له فنعتمدها، ونتخذها دليلا يضاف إلى الأدلة القائمة من قبل على أن هذا القرآن وحي رباني ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . على ألا نتعسف في ربط تفسير الآيات بكل شاردة وواردة مما يسمى علما . . كما حاول بعضهم أن يفسر قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾(١) . بما يتفق مع نظرية دارون في التطور. بينما أصحاب النظرية ذاتهم يتشككون اليوم في صدقها، وينحون في تفسير الحياة على الأرض منحى غير منحى دارون!!

والآن بعد هذه المقدمة التي نراها ضرورية ، نأخذ في عرض بعض دلائل الإعجاز العلمي في كتاب الله!

* * *

---

(١) سورة نوح : ١٤ .

يقول تعالى في وصف الجبال إنها أوتاد . .

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (١) .

وهذه الحقيقة العلمية لم تعرف إلا منذ أمد قصير، بعد ما أمكن تصوير باطن الأرض بالوسائل الحديثة التي لم تكن معروفة قبل القرن العشرين، بل قبل النصف الأخير من هذا القرن . . إذ وجد أن الجبل ليس هو الجزء الظاهر منه فوق سطح الأرض فقط، بل إنه مغروس كالوتد في باطن الأرض، وأن الجزء المغروس منه مدبب كالوتد، ليثبت الجبل مكانه . وأنه لولا جذر الوتد المغروس في باطن الأرض - في «اللاقا» السائلة - ما ثبت الجبل مكانه! وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للعرب - ولا لغيرهم - وقت نزول القرآن ، حتى يقال إن محمدا صلى الله عليه وسلم اقتبسها من علوم عصره . . إنما هي إحدى الإشارات القرآنية الكونية التي وعد الله البشر أنهم سيعلمونها في يوم من الأيام، ويعلمون أنها حق، ويتبينون أنها وحي من عند الله .

وفيما يختص بالجبال كذلك، هناك حقيقة أخرى لم تعرف إلا منذ عهد قريب، وهي الورادة في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾(٢) .

فمهمة الجبال في الأرض، التي خلق الله الجبال من أجلها هي ترسية الأرض، ومنعها أن تميد بالناس! فهي بجذور أوتادها المغروسة في اللاقا السائلة في باطن الأرض هي التي تحفظ توازن الأرض، وتجعلها مستقرة يستطيع البشر أن يعيشوا فوقها، وينشطوا نشاطهم، ويبنوا ما يبنونه من منازل ومنشآت . . ولولاها لظلت الأرض تميد بالناس ، وترتج بهم ذات اليمين وذات اليسار، بما تحدث منه نماذج خفيفة في الزلازل بين الحين والحين . .

* * *

وبصدد تلك الرواسي أيضا جاء في سورة الرعد:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهار إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) .

---

(١) سورة النبأ : ٦، ٧.

(٢) سورة النحل: ١٥ .

(٣) سورة الرعد: ٣.

وهذه الآية وحدها تحمل حشدا من «المعلومات» العلمية، متتابعة تتابعا «علميا» لم يكن يدركه الناس قبل اتساع معلوماتهم عن هذا الكون وما يجري فيه.

فالرواسي ـ وهي الجبال ـ تحفظ توازن الأرض، وفي الوقت ذاته هي مصدات تصد الرياح المحملة ببخار الماء فيصعد إلى أعلى، فيبرد، فيتكاثف، فينزل إلى الأرض في صورة أمطار، ومن الأمطار الغزيرة تتولد الأنهار.. ومن هنا نرى أن ذكر الأنهار بعد الرواسي ليس مجرد تعديد لآيات قدرة الله في الكون، وإنما هناك ترابط «علمي» بينهما، هو ترابط السبب والنتيجة.

ومرة أخرى يأتي الترابط «العلمي» فيما بين الأنهار والثمرات. فالأنهار هي التي تسقى الزروع، فتنتج فيها الثمار. وثمة حقيقة علمية أخرى هي أن الثمرات أزواج، وستتحدث عن هذه الحقيقة في فقرة تالية. ولكن الذي يلفت النظر «العلمي» هو ذكر غشيان الليل النهار بعد ذكر الثمرات. وهذه حقيقة علمية لم تكن معروفة إلا أخيراً.. أن الثمرة تنمو في الليل، وأن غشيان الليل النهار أمر ضروري لإنضاج الثمرة! وأنه إذا لم يأخذ النبات حظه من الإظلام في الليل فإنه يضعف ويضوي!

اكتشف هذا الأمر في الخمسينيات من هذا القرن في حادثة طريفة! فقد أقامت إحدى شركات الإعلان لوحة قوية الإضاءة في مزرعة أرز مملوكة لأحد اليابانيين. فلاحظ الرجل أن محصول الأرز قد تضاءل، فرفع دعوى على الشركة المعلنة يطالبها بتعويض عما أصابه من الخسارة بسبب هذه الإضاءة القوية في الليل! وأخذت المحكمة الأمر مأخذ الجد، فكلفت فريقا من العلماء أن يدرس القضية دراسة علمية لتقرير ما إذا كانت الإضاءة القوية قد أثرت بالفعل في تناقص محصول الأرز! وجاءت الأبحاث مثبتة هذه العجيبة: أن النبات يستريح في الليل أو إن شئت قلت ينام في الليل ليستأنف نشاطه مع مطلع النور في الصباح، وأن تلك الإضاءة القوية قد منعت النبات من غفوته الضرورية له، فضعف نتيجة الإرهاق!

ثم تبين كذلك أن الثمرة تأخذ أكبر حظ من نموها في تلك الفترة بالذات! الفترة التي يكون النبات فيها في غفوته! وأن كل نوع من الثمار يحتاج إلى فترة معينة من الإظلام لكي ينمو نموه الطبيعي، وأن توزيع النبات على وجه الأرض يتناسب تناسبا دقيقا مع أطوال فترة الليل في كل مكان، وأن النبات الذي تحتاج ثمرته ـ مثلا ـ إلى فترة إظلام تمتد اثنتى عشرة ساعة، إذا استنبت في بقعة ليلها عشر ساعات فقط فإنه يخرج ضعيفا عن أصله في أرضه الأصلية. أما إذا كان النقص كبيرا فإنه لايثمر!

هذه الحقائق العجيبة كلها ، التي كشفت بمناسبة تلك القضية العجيبة (التي حكمت فيها المحكمة لصالح صاحب المزرعة) تبين لنا أن هناك ترابطا «علميا» متسلسلا ما بين الجبال إلى الأنهار إلى الإثمار إلى غشيان الليل النهار . . وذلك من الإعجاز!

* * *

أما قضية «الأزواج» فهي قضية علمية لم تكن مكشوفة بكاملها للأجيال الأولى التي تلقت هذا القرآن، ولكن الأبحاث العلمية بينتها ووضحتها وكشفت دقائقها.

يقول تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وقد كان معروفا عند الناس وقت نزول القرآن أن في النبات والحيوان والإنسان زوجين: ذكرا وأنثى، ولكن آية يس أشارت إلى مالا يعلمون. ومعنى ذلك أن هناك أزواجا في غير النبات والحيوان والإنسان، تلك التي يعرفها الناس. كما أن آية الذاريات تشير إلى أن الأزواج موجودة في كل شيء على الإطلاق، وليست مقصورة على ما كان معلوما عند الناس يومئذ من وجودها في النبات والحيوان والإنسان.

وتمضي قرون . . ويتعرف العلماء على الذرة . . ويخضعونها للبحث في المعمل فيكتشفون أن في داخلها «زوجين» من الطاقة، إحداهما سالبة والأخرى موجبة، وأن فصلهما بعضهما عن بعض يحدث آثارا مريعة مدمرة ، هي التي تحدثها القنابل الذرية والقنابل النووية!

ويكتشفون عجيبة أخرى: إن التفاعلات الكيميائية هي عملية «تزاوج» بين المواد المختلفة. ففي كل ذرة لأى عنصر من العناصر نواة موجبة تدور حولها مجموعة من الكهارب السالبة (تسمى الإلكترونات) ، عددها محدد في كل عنصر، وتكون على هيئة دوائر متكاملة حول النواة، ولكن الحلقة الأخيرة من هذه الدوائر تكون ناقصة ، هكذا هي في خلقها الرباني، وأن العنصر الذي تكمل حلقته الناقصة حلقة عنصر آخر يمكن أن يتم بينه وبين العنصر الآخر تفاعل كيمياوي (أي تزاوج) وأن العنصر الذي اكتملت الحلقة الأخيرة لحسابه يكون هو قاعدة التفاعل!

---

(١) سورة يس : ٣٦.

(٢) سورة الذاريات : ٤٩.

وللتمثيل نفترض أن عنصرا من العناصر تتكون كل حلقة من كهاربه السالبة (الإلكترونات) من ثمانية إلكترونات، وأن الحلقة الأخيرة مكونة من ستة إلكترونات فقط. فأيما عنصر تنتهي حلقته الأخيرة بإلكترونين اثنين يكون قابلا للتفاعل مع ذاك العنصر، وتتم في التفاعل عملية تزاوج يكمل فيها أحد العنصرين الآخر!

وهذه المعلومات كلها، التي لم تكن معلومة لأحد من البشر وقت نزول القرآن، هي التي تفسر قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾. كما أنها تحقق ما أخبر الله به عباده أنه سيكشف لهم عن أسرار في المستقبل، لم يكونوا يعرفونها وقت نزول القرآن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1]. ومن يدري: ماذا يكشف الله غداً للناس من الآيات، في الأنفس وفي الآفاق؟!

* * *

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [2].

وأمر النحل معلوم من قديم..

ولكن الجديد الذي أثبتته الأبحاث أن الترتيب في الآية ما بين الجبال والشجر ما يعرشون هو ترتيب «نوعي»! وليس مجرد ذكر للأماكن التي يرتادها النحل ويحصل منها على غذائه بإذن ربه! فعسل الجبال هو أغناها وأعلاها، وأكثرها فاعلية في شفاء كثير من الأمراض، ثم يأتي بعده في النوعية العسل المستمد من الأشجار العالية، وأخيرا تأتي نوعية العسل المستمد من النباتات القصيرة القريبة من الأرض.

وسبحان الخلاق العظيم.. وسبحان من علم بالقلم، علّم الإنسان مالم يعلم!

* * *

يقول تعالى:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3].

---

(١) سورة فصلت: ٥٣. (٢) سورة النحل: ٦٨ـ٦٩.

(٣) سورة الرحمن: ١٩ـ٢١.

وهذه من العجائب التي لم تكن معروفة للناس وقت نزول القرآن. إنما عرفت حديثا حين سعى الإنسان إلى التعرف على ظواهر الطبيعة بوسائل علمية دقيقة.

إن الماء العذب الذي تصبه الأنهار في البحار والمحيطات يظل محافظا على عذوبته غير ممتزج بملوحة البحر مسافة طويلة داخل البحر، كأنهما معزولان أحدهما عن الآخر بذلك «البرزخ» الذي يمنع عدوان أحدهما على الآخر!

بل الأعجيب من ذلك، أن مياه البحر الأحمر لاتمتزج بمياه المحيط الهندي عند باب المندب ـ ذلك البرزخ الذي يفصل بين البحر والمحيط ـ مع أن كليهما ماء ملح. ولكن نسبة الملوحة مختلفة بين هذا الماء وذاك، فيظل أحدهما طافيا فوق الآخر لايمتزج به!

بل العجب العجاب هو اكتشاف بحيرات عذبة في باطن المحيطات، تظل عذبة وهي محاطة بالملوحة من كل جانب، فسبحان الخلاق العظيم.. وسبحان الفتاح العليم!

* * *

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾(1).

والسحب الركامية لا تظهر على حقيقتها للناظر إليها من أسفل، أي من فوق سطح الأرض، فإنما يبدو منها قاعدتها السفلية فقط، وهذه تكون ممتدة في السماء بدرجة واحدة. أما حين تصعد إلى أعلى، في الطائرة مثلا، فإنك ترى تراكم هذه السحب بعضها فوق بعض، فتراها على صورتها الحقيقية، وترى أنها طبقات، وليست طبقة واحدة كما تبدو للناظر من فوق سطح الأرض، وأنها ليست على ارتفاع واحد، وإنما يختلف ارتفاع طبقاتها بمقدار ما تراكم في كل طبقة من بخار الماء، وأن بعضها يبدو كجبال معلقة في الفضاء، جبال ذات قمم مختلفة الارتفاع!

هذا كله لم يكن معروفا قبل اختراع الطائرات، والصعود بها فوق مستوى السحب. وكان من المستحيل على بشر أن يتصور التراكم الذي تشير إليه الآية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾، فكان هذا الوصف الدقيق لونا من الإعجاز

---

(1) سورة النور: ٤٣.

العلمي ، وكان اكتشاف البشر له بعد قرون من تنزل القرآن تحقيقا للوعد الرباني : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا . . ﴾ فهو إعجاز مزدوج ؛ إذ هو وصف لأمر لم يكن البشر يعرفون صفته في ذلك الحين ، وإخبار في الوقت ذاته بأنهم سيعرفونه في مستقبل أيامهم .

* * *

يقول تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وضيق النَّفَس مع الصعود في السماء تجربة لم يجربها البشر قط إلا بعد اختراع الطائرات ! فقد عرفوا حينئذ أن الأوكسجين يقل في طبقات الجو العليا عن معدله على سطح الأرض ، وأن الضغط الجوي يخف كلما اتجهنا صُعُدا ، فتضيق الأنفاس ، وتحس الصدور بالحرج .

ولكن أنى للبشر وقت نزول القرآن أن يعرفوا هذا الأمر وهم لم يكونوا قد صعدوا إلى السماء ، ولا جربوا كيف تكون الصدور عند التصعيد !

إنه كذلك إعجاز مزدوج : إعلام بأمر كان الناس يجهلونه يومئذ ، وإيحاء بأنهم سيعرفونه ذات يوم !

* * *

يقول تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[2] .

وقبل سنوات قليلة لم يكن الناس يعرفون شيئا عما يجري في الآماد البعيدة من السماء . فقد كانت أدوات الرصد عندهم محدودة المدى ، تدرك وجود الكواكب ، وتدرك وجود المجرات في السماء ، وتقدر أنها تبلغ الملايين عدا ، ولكنها لاتدرك أن هناك اتساعا دائما في الفضاء ، وأن المسافات تتباعد بين بعض الأجرام السماوية وبعض ! ولم يدركوا ذلك حتى اخترعوا مناظير من أنواع أخرى تخترق الأغوار البعيدة في الفضاء ، ومركبات فضاء تسجل حركة الأفلاك على أبعاد هائلة من الأرض .

---

(١) سورة الأنعام . ١٢٥ .　　(٢) سورة الذاريات . ٤٧ .

وكلما اتسعت معارف الإنسان ومخترعاته وجد جديداً في كتاب الله لم يكن يفطن إليه، أو لم يكن يدرك أسراره. وصدق رسول الله ﷺ: «لاتنفد عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد»![1]

* * *

يلفت النظر ولا شك أن أيّا من الكتب المنزلة السابقة لم يحو شيئا من هذه الإشارات الكونية الواردة في القرآن. والله أعلم بما ينزل.

فقد شاء الله أن يتميز الكتاب الذي يحمل كلمة السماء الأخيرة للبشرية كافة بخصائص لاتوجد في غيره.

كانت الرسالات السابقة محدودة بأقوام معينين، ومحدودة بزمن معين ينتهي بإرسال رسول جديد، بينما هذه الرسالة للبشر كافة، وللزمن كله من مبعث رسول الله ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكانت الكتب المنزلة السابقة تحوي احتياجات الأقوام الذين تنزل عليهم في الزمن المحدد في علم الله. أما القرآن، فقد أنزل الله فيه ما تحتاج إليه البشرية كلها، وفي الزمن القادم كله. فلا عجب أن يختلف عن الكتب السابقة في مبناه وفي محتوياته، وإن كان مصدقا لما فيها، ولكن مهيمنا عليها:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ..﴾[2].

والإعجاز العلمي كان واحدا من جوانب التميز التي تفرد بها هذا الكتاب.. وانكشاف الحقائق العلمية التي يحتويها الكتاب للبشر جيلا بعد جيل هو جانب من جوانب استمرارية الرسالة التي نزل بها الكتاب! فهو ليس لجيل واحد تنتهي مهمته بعدها، أو تنقطع صلة الأجيال به، بل هو لكل الناس في كل جيل، يهديهم إلى ربهم، ويوجههم إلى الخير وإلى الحق، ويربيهم على المنهج القويم، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون!

---

(١) سبقت الإشارة إليه

(٢) سورة المائدة: ٤٨.

المستشرقون والقرآن

أشرنا في المقدمة إلى تلك المحاولة الساذجة التي قام بها أحد الشباب المتأمركين ليقلد أسلوب القرآن ثم يقول: هاأنذا قد أتيت بمثله.. فهو إذن صناعة بشرية وليس منزلا من عند الله!

وفي ختام البحث نشير إلى المستشرقين.

إذا كان ذلك الشاب قد قام بمحاولة ساذجة فجة ليشفي غليله من الإسلام والقرآن، فالمستشرقون يقومون بجهد منظم دءوب، ينفق بعضهم فيه عمره، وتنفق عليهم دولهم الملايين، للتشكيك في المصدر الرباني للقرآن، ومهاجمته بكل وسيلة لعلهم يصلون إلى شيء يشفي الغليل!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(1).

﴿... وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾(2).

قضية قديمة تتكرر، وموقف معلومة دوافعه!

* * *

إن هذا الكتاب الذي عرضنا بعض جوانب الإعجاز فيه، لا على سبيل الحصر ولكن على سبيل التمثيل.. الكتاب الذي يأخذ النفس البشرية من جميع جوانبها، وينفذ إليها من جميع أقطارها، ويتناول جميع مجالات حياتها، ويمنحها منهجا متكاملا، يشمل عقيدتها وسلوكها، وسياستها واجتماعها واقتصادها، ودنياها وآخرتها.. في أسلوب معجز متفرد..

---

(1) سورة فصلت: 26. (2) سورة الأحقاف. 11

هذا الكتاب موضع غيظ شديد في قلوب الذين لايؤمنون به :

﴿ . . قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾(١) .

وأغيظ ما يغيظ أعداء الإسلام أن المسلمين يؤمنون إيمانا لايتزعزع بأن كتابهم هو الكتاب الحق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الله حفظه بحفظه فلم يتبدل منه حرف منذ نزل من عند الله .

يغيظهم ذلك فيسعون جاهدين إلى نفي الوحي، ونفي المصدر الرباني للقرآن، ونسبته إلى الرسول ﷺ ،وهو إفك قديم قالته الجاهلية العربية من قبل، وماتزال كل جاهلية ترده!

* * *

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ . . ﴾(٢) .

ليس فقط بأسلوبه المعجز، ولكن كذلك بمحتوياته، وبكون هذه المحتويات ـ بكل شمولها وتكاملها ـ معروضة بهذا الإسلوب المعجز . . أي أنه إعجاز فوق إعجاز .

لو أن الإعجاز كان في الأسلوب وحده، الذي عجز الناس خلال القرون عن أن يأتوا بمثله، لكان هذا كافيا لإثبات مصدره الرباني، ودليلا قاطعا على صدق رسول الله ﷺ في دعواه أنه رسول مرسل من عند الله، وأنه لاينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٣) .

فكيف إذا كان الإعجاز موضوعيا إلى جانب الإعجاز البياني؟

هل تأتى لبشر في التاريخ كله أن يؤلف كتابا يحوي من الحقائق ما جاء به القرآن الكريم؟

خذ حقيقة الألوهية وحدها، وما جرى فيها على أيدي البشر من تخبطات مقارنة بصفاء الوحي وشفافيته، ووضوحه وتألقه ، وعمقه ونصاعته .

---

(١) سورة فصلت . ٤٤ . (٢) سورة يونس ٣٧.

(٣) سورة النجم . ٤ .

وخذ إلى جانبها عشرات الحقائق الواردة في كتاب الله: حقيقة خلق الإنسان. حقيقة الدنيا والآخرة. حقيقة البعث والنشور والحساب والجزاء. حقيقة القيم التي ينبغي أن تحكم حياة الإنسان في الأرض. حقيقة الكون المادي وما يجري فيه. حقيقة المهمة التي خلق الإنسان من أجلها. حقيقة الإيمان. حقيقة المعركة القائمة بين الإيمان والكفر. حقيقة السنن الربانية التي تحكم حياة البشر..

أي كتاب من صنع البشر جمع هذا الحشد من الحقائق بالتناسق الذي عرضت به في هذاالكتاب، وبقوة التأثير الذي يبعثه في النفوس هذا الكتاب؟

وأي بشر تبلغ اهتماماته هذا الشمول الذي لايغادر شيئا من أساسيات الحياة إلا ويتعرض له، ويتعرض له في عمق وتمكن مثل ما جاء في هذا الكتاب؟

ولكن المستشرقين لهم في ذلك تخرصات!

يقولون: لقد جاء محمد ﷺ بما جاء به نقلا من كتب أهل الكتاب، أو سَطْواً عليها، أو تلقيا من أصحابها!

وما أحسب أن فرية يمكن أن تبلغ من الكذب المفضوح أشد من هذه الفرية!

كيف يتأتى للذي ينقل من كتاب يقول إن الله ثالث ثلاثة أن يقرر أن الله واحد؟ وكيف يتأتى للذي ينقل من كتاب يقرر أن لله ولدا يشاركه في الألوهية، أن يقرر أن الله لاشريك له ولا ولد؟!

وكيف يتأتى للذي ينقل من كتب لم تترك نبيا من أنبياء الله إلا لطخت سمعته وشوهت صورته، واتهمته بما لا يجوز في حق الرجل العادي فضلا عن النبي المرسل، أن يسرد سير الأنبياء وقصصهم بالنصاعة والطهر والسمو الذي وردت به سير الأنبياء في القرآن؟!

وكيف يتأتى للذي ينقل من كتب لم تتعرض لآيات الله في الكون، ولا لأطوار الجنين البشري من النطفة للعلقة للمضغة للعظام لاكتمال التكوين، أن يسرد في كل هذه الأمور حقائق لم يتعرف العلم عليها إلا منذ زمن قريب؟!

ألا تستحي هذه الناس؟!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[١] .

ولكن المعركة لن تكف :

﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[٢] .

فعلى المسلمين من جانبهم أن يعرفوا حقيقة دينهم، وحقيقة الكتاب المنزل إليهم، وأن يقدروه حق قدره، وأن يتدبروه ليعرفوا عظمته وإعجازه :

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[٣] .

وأهم من ذلك كله أن يعملوا بما فيه، فإنما نزل ليكون منهج حياة لخير أمة أخرجت للناس .

ويوم يرجعون إلى كتابهم فيتدبرونه ليعملوا بمقتضاه ، ستعود لهم خيريتهم، وسيعود لهم التمكين الذي كان لهم في الأرض، وسيقومون بالشهادة على كل البشرية كما أمرهم الله :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٤] .

---

(١) سورة الأنعام: ٢١ (٢) سورة البقرة: ٢١٧
(٣) سورة النساء: ٨٢. (٤) سورة البقرة: ١٤٣

المحتويـــات

مقدمة	٧
من الإعجاز البياني	١١
من الإعجـاز الدَّعَوي	٣٧
من الإعجاز التربوي	٩٥
من الإعجاز التشـريعي	١٧١
من الإعجـاز العلمي	١٩٣
المستشرقون والقرآن	٢٠٤

رقم الإيداع ١٨٠٣٩/ ٢٠٠١

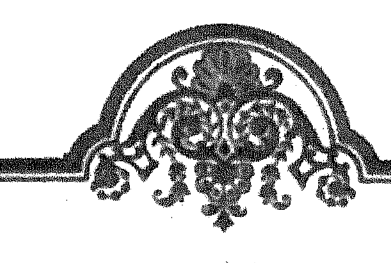
الترقيم الدولى 0 - 0779 - 09 - 977

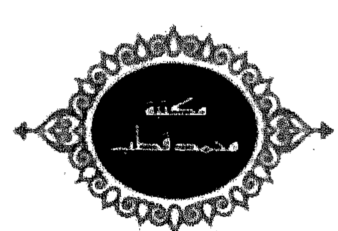
مطابع الشروق

القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت ص ب. ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)







- دراسات فى النفس الإنسانية
- التطور والثبات فى حياة البشرية
- منهج التربية الإسلامية
- منهج الفن الإسلامى
- جاهلية القرن العشرين
- الإنسان بين المادية والإسلام
- دراسات قرآنية
- هل نحن مسلمون؟
- شبهات حول الإسلام
- فى النفس والمجتمع
- حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية
- قبسات من الرسول
- معركة التقاليد
- مذاهب فكرية معاصرة
- مفاهيم ينبغى أن تصحح
- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة
- دروس من محنة البوسنة والهرسك
- العلمانيون والإسلام
- هلم نخرج من ظلمات التيه
- واقعنا المعاصر
- قضية التنوير فى العالم الإسلامى
- كيف ندعو الناس؟
- المسلمون والعولمة
- ركائز الإيمان
- لا يأتون بمثله

دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر